مصطفى محمود

الأحلام

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

مقدمة

الإنسان تتآكله شهوة غامضة خطرة. أخطر من شهوة الجنس.. وأخطر من شهوة الطعام.. هى شهوة العقيدة.. شهوة اليقين.. الشهوة إلى شىء يؤمن به ويصدقه.. وهو فى سبيل هذه الشهوة، قد يؤمن بحجر أو صنم أو تعويذة أو حجاب أو درويش أهبل.. ليس لأنه ساذج أو مغفل، وإنما لأنه ضعيف.. به ميل فطرى.. وشوق غريزى حاد إلى هدف يرتبط به.. وكلمة يصدقها وعقيدة يعتقدها.

إن كل شىء يسقط من حواليه ويذبل ويفنى. الناس والمبادئ.. والحقائق والمثل.. حتى نظريات العلم يفتتها الشك وتهدمها البحوث وتنسخها بنظريات أخرى تعلو عليها.

إنه فى معبد تتساقط أعمدته.. وتتساقط أصنامه.. وتتساقط كلماته، وهو نفسه يتساقط فى النهاية من المرض

والإعياء والشيخوخة ويفنى.. ولهذا يعيش فى رعب.. الأرض تهتز من تحته وهو يتلمس حقيقة يمسك بها.. شيئًا ثابتًا يلوذ به وينجو من الهلاك.

إن مشكلته ليست الإمساك برمقه، وإنما الإمساك بعقله الذى يذهب شعاعًا كلما تلفت حواليه.

إنه يدرك من الوهلة الأولى منذ مجيئه إلى الدنيا، إنه كالمدعو إلى وليمة باذخة.. ولكن الأكل كله مسموم.. وكل المدعوين الذين يأكلونه يموتون.. بلا استثناء.

ما السر فى الوليمة إذن.. ولماذا يأكل.

إن شهوة الأكل تدفعه إلى الأكل.. وهو لابد أن يأكل ليمسك برمقه.. ولكنه يريد أن يمسك بعقله أيضًا.. يريد أن يعرف.. من أين.. وإلى أين ولماذا.. وما هذا.. يريد يقينًا.. ولا يجد يقينًا.. ويتوسل إلى سبيل.

نجد أستاذًا فى الجامعة يؤمن بشيخ يحضر الأرواح.. وطبيبًا يؤمن بالفنجان.. وامرأة مثقفة تؤمن بفاتحة بخت.

والسبب أن الثقافة نفسها لاتنجد، وشهوة اليقين أكبر من الثقافة. وأكثر إلحاحًا من أن تنتظر لتجد أجوبة أكيدة.

وفى الصعيد قابلت رجلا عجيبًا.. أفنديًا تخرج من

التجارة.. صرافًا لفت نظرى لبسه المهلهل.. ونظراته الساهمة الشاردة.

ناقشنى فى الأديان.. وفى الله ووجوده.. وفى يوم القيامة.. وقال لى: إن يوم القيامة سوف يكون فى سنة ١٩٦٨ العرافة قالت له هذا ونصحته بأن يخزن فى بيته تموين مائة سنة لأن القيامة سوف تقضى بالفناء على البشرية كلها ما عدا هو. وأنه سيكون مثل نوح الذى ينجو من الطوفان.. وأن بيته سوف يكون كسفينة نوح التى تهب الحياة لكل من يلوذ بها.. وعليه أن يملأ بيته من الآن بكل أصناف الحياة.. وبكل أصناف التموين والمأكولات.

وذهبت إلى بيته لأجد حجرات بأكملها مليئة إلى السقف بأطنان من الأرز والعدس والفول والسكر والبن والشاى والصابون والكمون والكزبرة والكبريت.. وأشياء غريبة مثل اللبان والزئبق والصمغ. وأزواج من الأرانب والفئران والكلاب والدجاج والبط والأوز.

لقد باع الرجل الفدادين الثلاثة التى يملكها واشترى مئونة سفينة نوح لمائة سنة:

وحكى لى أنه لم يدخل الحمام منذ شهر.. عملا بنصيحة العرافة بألا يقرب الماء أربعين يومًا بالتمام، حتى يتجلى له

السر الأعظم ويعرف ميعاد يوم القيامة باليوم والساعة.

وكان يبدو سعيدًا وهو يروى لى انتظاره لهذا اليوم الموعود.. وكانت عيناه تبرقان وهو ينطق بكلمة السر الأعظم.

وشعرت برغبة فى الضحك.. ولكنى ما لبثت أن ابتلعت الضحك وأحسست بالإشفاق لا على الرجل وحده، وإنما على الإنسانية كلها.

أربعون مليونًا من الشعب الألمانى كانوا فى أحد الأيام مثل هذا الرجل.. يمشون خلف هتلر.. ويعتقدون فى خرافة العنصر الآرى.. تمامًا كما يمشى هذا الرجل خلف العرافة ويعتقد فى هذيانها.. وقد دفع الرجل ثلاثة فدادين من ماله.. ودفع الشعب الألمانى خمسة ملايين روح من أرواحه ثمنًا لهذه الشهوة.. شهوة الإيمان.. شهوة الراحة إلى يقين بأى طريق.

وفى الأضرحة التى نصادفها كلما ذهبنا فى أزقة القاهرة.. فى قرى الأرياف.. أمثلة أخرى لهذه الشهوة موضوعة فى علب وأمامها الناس البسطاء بعيونهم الدامعة.. يوقدون الشموع.

وفى كل مكان يبحث الإنسان التعس الذى تذروه رياح الشكوك عن يقين.. يبحث عن زعامة يؤمن بها إيمانًا مطلقًا أو فكرة يدين بها ديانة عمياء.. أو صنمًا يركع أمامه ويستشيره.. إنه يطلب الراحة النفسية بأى ثمن.. إلا الفيلسوف إنه وحده الذى يرفض المقدسات والمسلمات ويصر على مواجهة المأساة برمتها.. ويصر على البقاء فى المعبد.. فى حين أن أعمدته وأصنامه وكلماته تنهار وتتحطم على رأسه.. ويرفض أن يلوذ بخرافة أو كذبة.. ليستريح.

إن شهوة الحقيقة عنده أقوى من شهوة الإيمان بصنم.. وألم الشك عنده أرحم من ألم التزييف والتضليل.

إنه لايستطيع أن يضلل نفسه ولايملك إلا أن يقف بين المتناقضات يتمزق.. باحثًا عن حل مخلص من خلال محنته.

إن المؤمنين يقولون عنه أنه ملحد.. ولكنه ليس ملحدًا.. وإنما هو مؤمن على مستوى أرفع من إيمانهم.. شهوته أرقى من شهوتهم.. وهدفه أبعد من أهدافهم.. والثمن الذى يدفعه أبهظ من كل الأثمان التى يدفعونها.. إنه يسكن فى أرض الزلازل ليعرف حقيقتها.. ويقضى عمره يرتجف.. والأرض من تحته تنشق مرة بعد أخرى.. وكلما خيل إليه أنه وصل إلى حقيقة ثابتة انشقت الأرض عن هوة تحتها.. لايصده عن غايته خوف ولاطمع.

الموت أو الجنون هو الذى يمكن أن يعفيه.. إن الفيلسوف هو الفدائى الذى يطهر المستقبل من الألغام الفكرية التى وضعها المفكرون القدامى فيه.. هو الذى يرفع التقاليد من مكانها.. وهو الذى يحطم الأفكار الجاهزة ليضع أفكارًا جديدة، وكل لغم من الألغام ينفجر فى عقله وينفجر معه غضب الناس وسخطهم واضطهادهم.. ولكنه يمضى فى طريقه لا يهتم.. وربما قاده الطريق إلى الصلب أو المشنقة.. أو المحرقة.. أو السجن ولكنه لا يبالى.. لأنه أدرك الحقيقة الكبرى.. أن الفناء فى جوهره.. وأنه ميت لا محالة.. بل هو ميت من الآن يدب على ساقين.. فليقل كلمته وليتحطم ليقلها فى وجه الناس..

إنه الناطق الرسمى باسم الفطرة..

ولهذا فهو يكـرس حياتـه للبحث عن الحقيقة وللبحث عن إيمان سليم.. فهذه هى فطرة الإنسان كما خلقها خالقها.

لقد فطرها على البحث عن الحق والإيمان به وقال لنا فى جميع كتبه إنه.. الحق..

ولهذا كانت كل خطوة فى سبيل معرفة الحق هى عبادة.. وهى دين.. وهى علم.. وهى الفكر كما أراد له الله أن يكون.

مصطفى محمود

الأحــلام

هناك حكمة قديمة تقول.. بأن لا جديد تحت الشمس.. وأن كل اختراع ما هو إلا توليفة من الأفكار القديمة مركبة على نمط آخر.. وكل رواية جديدة ما هى إلا نفس المشاكل القديمة معروضة بشكل آخر وكل نظرية جديدة ماهى إلا النظريات القديمة من وجهة أخرى.

لا جديد..

الحب الذى نقرأ عنه فى قصص الفراعنة.. هو نفس الحب الذى نقرأ عنه فى قصص بلزاك، وهو نفس الحب الذى نقرأ عنه فى قصص سيمون دى بوفوار.. لاجديد.. مجرد اختلاف فى الأساليب وطريقة العرض.. ولا شىء غير ذلك.

المجتمع تطور.. ولكنه كان تطورًا فى الشكل، أما الإنسان فقد ظل هو نفس الإنسان.. إنسان الغابة استبدل

مخالبه بمخالب أخرى أنيقة مدهونة بالمانيكير.. كان فى البداية يقتل أخاه بقطعة حجر.. ثم اكتفى بأن يمتلكه ويبيعه كرقيق.. ثم اكتفى بأن يسرق خبزه.. ثم ظهرت دول استعمارية خطتها أن تسرق أرضه وتستولى عليها.. ثم ظهر استعمار آخر من نوع مذهبى هدفه الاستيلاء على حريته وعقله وتفكيره.

مجرد اختلاف فى الأساليب والحيل والتبريرات.. ولكن المشكلة هى هى لا جديد فيها منذ أن بزغت الشمس.

وهناك قانون فى علم الطبيعة يقول إن المادة تخضع فى سلوكها لنفس النظام فهى لا تفنى ولا تستحدث.. العود الكبريت حينما يحترق ويختفى هو فى الحقيقة لا يفنى، وإنما يتحول إلى ثانى أكسيد كربون وماء وحرارة.. يتحول إلى تواليف أخرى. وتبقى مادته على الدوام حافظة لوزنها لا تزيد ولا تنقص ولاتفنى ولاتستحدث.. الاستحداث هو مجرد استحداث أشكال وعلاقات.

وهناك قانون أخطر من الاثنين فى علم النفس يؤكد أن النفس البشرية تخضع أيضًا لنفس القاعدة.. فالنفس لاتفقد شيئًا من مضمونها لا يوجد شىء أسمه نسيان. كل إحساس. وكل تجربة. وكل خبرة. وكل عاطفة مهما بلغت

من الهوان والتفاهة، لا تفنى ولاتستحدث.

وكل أسرار قلوبنا ووجداننا غير قابلة للاندثار، كل ما فى الأمر أنها تنطمس تحت سطح الوعى، وتتراكم فى عقلنا الباطن لتظهر مرة أخرى فى أشكال جديدة. فى زلة لسان أو نوبة غضب أو حلم غريب ذات ليلة.

وما الأحلام إلا الحياة التى تدب فى هذه العواطف التى ظننا أننا نسيناها.

وبرجسون يعتقد أن الحياة تقاوم النوم وتصارعه، وأن الأحلام هى ماضينا الذى يقاوم النوم.. أو يتمطى فى خيالنا بين ليلة وأخرى.

وبرجسون له نظرية فى الأحلام مستقلة عن نظرية فرويد.

وهو يقول إننا فى الحقيقة لا ننام.. وأن حواسنا فى الحقيقة لا تنام، وإنما هى تنعس فقط وتسترخى بمعنى أننا نظل نحس، ونظل نرى، ونظل نسمع فى أثناء النوم، ولكن مرئياتنا وإحساساتنا تأتى إلينا باهتة مغلفة بالضباب..

فنحن إذا أغلقنا عيوننا وأسدلنا أجفاننا فإن مسرح الرؤيا لاينطفئ تمامًا من أمامنا، وإنما نظل نرى نقطًا مضيئة ودوائر وخطوطًا وبقعًا مظللة وبقعًا ملونة، تتحرك وتتمدد

وتنكمش فى مجالنا البصرى.

وعلماء العيون يقولون إن هذه النقط والدوائر والبقع، سببها الدورة الدموية فى قاع العين وضغط الأجفان على القرنية.. أما برجسون فيعتقد أن هذه النقط هى المسحوق الضوئى الذى تنشأ منه الأحلام.. إنها مثل علبة الألوان ومسحوق الطباشير والباستيل الذى يلون به الرسام لوحته.

وبالمثل تظل آذاننا مفتوحة فى أثناء النوم.. وتظل الأصوات تتسلل إلى أعصابنا وتثيرها.

وبالمثل يظل جلدنا حساسًا ويظل ينقل إلى أعصابنا كل شكة، وكل لدغة وكل لفحة ساخنة وكل رعشة باردة، وكل إحساس بالخشونة أو النعومة أو الضغط.

وأحشاؤنا لاتنام هى الأخرى.. وإنما تظل فى حركة دائمة طول الليل.. وقد تبعث إحساسًا بالانتفاخ أوالمغص أو الغثيان.. وعظامنا قد تبعث هى الأخرى أوجاعًا وآلامًا..

ومعنى هذا أن الجسم لاينام.. وإنما يظل مثل مدينة مفتوحة تغزوها المشاعر والأحاسيس من كل جانب..

وما الأحلام سوى التهافت الذى يحدث حول كل إحساس من هذه الأحاسيس.

ويستشهد برجسون بالتجارب التى أجراها معهد الأبحاث السيكولوجية البريطانى على عدد من النائمين..

وفى إحدى هذه التجارب يلقى الطبيب بشعاع بطاريته على أعين النائمين فى العنبر ثم يوقظهم ويسألهم جميعًا عن الحلم الذى شاهدوه فيجيب الجميع بإجابة واحدة.. لقد حلموا بأن النار مشتعلة فى العنبر، وأن ألسنة من اللهب تصعد إلى السقف وتتراقص فى الهواء.

وفى تجربة أخرى يصلصل الطبيب بالمقص فى أذن كل واحد على انفراد وهو يغط فى نومه، فتؤدى هذه الآثار إلى حلم طويل معقد فيه حب وخيانة ومبارزات بالسلاح الأبيض فى الغابة.

فى تجربة ثالثة يفتح الشباك ليسقط شعاع القمر الباهت على أعين النائمين فتؤدى هذه الإثارة إلى أحلام لذيذة عذبة بطلاتها عذارى جميلات بيض كالمرمر.

وهناك تجربة أخرى جربناها جميعًا هى النوم بعد عشاء دسم وما يحدث فيه من انتفاخ وامتلاء يؤدى إلى حلم الكابوس..

وبالمثل إحساس الحصر فى أثناء النوم يؤدى إلى أحلام بالتبول.

ومعنى هذا أن الأحلام لاجديد فيها، وأنها انعكاس للحياة الفسيولوجية التي يعيشها الجسم.. والجسم بطبيعته لاينام.. وإنما هو يكسل فقط، وتكسل حواسه، ولكنها تظل تتوارد على الذهن.

تظل المرئيات تتوارد على العين.. والأصوات تتوارد على الأذن، والمشاعر تتوارد على الجلد، والآلام تتوارد على الأحشاء.

وحول هذه المشاعر تتهافت الصور الذهنية لتصنع الأحلام..

وهى تتهافت من المحصول الذى نحتفظ به فى الذاكرة..

إن مضمون الأحلام تصنعه الذاكرة.. وشكل الأحلام تصنعه الحواس.. تمامًا كما يحدث فى اليقظة.. الشكل الذى نراه فى الواقع تصنعه الحواس وفكرتنا عن هذا الشكل تصنعها الذاكرة.

الذاكرة هى الأرشيف الذى نرجع إليه كل لحظة لنبحث عن المتعلقات التى تتطلبها الرؤية التى نراها فى الواقع.. وهذا هو ما يحدث تلقائيًا فى أثناء النوم. تتسابق الصور من الذاكرة لتتهافت على الإثارة التى أثارتها الحواس.

وبرجسون يقول أكثر من هذا.. يقول إنه حتى فى اليقظة

تستطيع الذاكرة أن تشكل رؤية وهمية تشبه ما يحدث فى الأحلام.. فالقارئ أحيانًا يمر على الخطأ المطبعى فى الصحيفة وفى الكتاب فلا يفطن إليه، ويقرأ الكلمات كما لو كانت صحيحة.. والسر فى هذا أن شكل الكلمات فى أرشيف ذاكرته صحيح وذاكرته تصور لـه الإملاء الصحيـح فى أثناء القراءة وتسد الفجوات المـطبعية نتيجـة السهو أو الخـطأ فيرى الكلمات كما لو كانت صحيحة ويقرؤها سليمة ولايفطن إلى أخطائها.

وهذه الـ.. «كما لو كانت».. هى مفتاح اللغز فى تكوين الأحلام «كما لو كانت» حقيقة.. وأرشيف الذاكرة هو الذى يمد خيالنا بالصور الواقعية ويمدنا أيضًا بالإحساس بأننا نعيش كما لو كنا فى الواقع.

ما الفرق إذن بين الحلم واليقظة؟!

الفرق هو فى درجة اليقين.. ودرجة الدقة ودرجة الصدق، ودرجة التطابق بين واقع الإحساس وواقع التذكر.

واقع الإحساس فى أثناء اليقظة، واقع متوتر كله انتباه وتركيز وحصر للذهن.. واستدعاء الذاكرة يكون فيه حادًّا.. وبالتالى يكون عمل الذاكرة دقيقًا، فالبيت الأحمر المبنى بالطوب الذى أشاهده فى آخر الشارع هو بالتأكيد بيت خالى ليس فى ذلك شك.

وهذا التطابق وهذه الدقة لا توجد فى الأحلام، وإنما يكون التهافت مفككًا من عدة ذكريات فى وقت واحد، فهذا البيت الأحمر هو سجن طره، ولكنى أشعر وأنا أتجول فيه أنه يشبه بيت خالى، ثم أشعر فجأة أنه يشبه بيت الفيل فى حديقة الحيوان..

والسر فى هذا التهافت المفكك هو الاسترخاء، إن الحلم نشاط غير متوتر.، نشاط كسلان. ناعس، مسترخى.. تختلط فيه الأحاسيس والصور.

وهناك فارق آخر بين اليقظة والحلم، إن الزمن فى اليقظة هو زمن الساعة الموضوعى الذى يعيش فيه الكل. ولهذا تضبط الذاكرة نشاطها عليه وتتابع الخيال باستنتاجاتها أولا بأول حتى لا يفوتها قطار الواقع.. إنها تعيش فى إطار زمانى مكانى محدد. وهذا التحديد يؤدى إلى دقة أكثر.

أما فى الحلم فلا يوجد تحديد. الزمان والمكان لا وجود لهما.. النائم يقطع صلته بالزمن الموضوعى ويعيش فى زمن ذاتى خاص به.. ويقطع صلته بالمكان ويعيش فى عالم فراغى.. بهذا يستطيع أن يضغط حوادث حلم تستغرق سنة كاملة فى دقيقة زمنية، أو يمط حادثة قصيرة إلى سلسلة كسولة من الوقفات والانطباعات.. ويستطيع أن يشاهد

منظرين فى وقت واحد لأنه لا توجد جدران للمسرح الذى يقف عليه. وهذا يؤدى إلى التداخل والتشويش فى الأحلام، ويجعل الأحلام مفتقرة إلى الدقة والتحديد اللذين يمتاز بهما الواقع.

وبرجسون يضرب لنا مثلا بحلم من أحلامه.. يقول:

- كنت أحلم أنى أخطب فى جمهور.. ثم بدأت أسمع همهمة فى القاعة. وبدأت الهمهمة ترتفع وترتفع حتى أصبحت صخبًا مدويًا، ثم ضجيجا مرعبًا، ثم بدأت أميز بينها صيحات واضحة تتردد بإيقاع منتظم.. أخرج بره.. أخرج بره.. أخرج بره.. أخرج بره.

وتيقظت مرعوبًا لأجد أن الكلب يعوى فى الحديقة إلى جوار أذنى وعواؤه يتردد بإيقاع منتظم ينطبق على الفقرات التى كنت مازلت أسمعها.. أخرج بره.. أخرج بره..

كان من الواضح أن الحلم بدأ بهذا العواء الذى ظل يطن فى أذنى ويثيرنى.. وتحركت ذاكرتى.. وذاكرة محاضر فلسفة بالجامعة تذكر أول ما تذكر من أنواع الضجيج.. ضجيج التلاميذ وصخبهم وتململهم. وبهذا تم التطابق التقريبى وانتهى إلى هذا الحلم.

وبرجسون فى الحقيقة لم يقل لنا ما السر فى أن الضجة

التى تهافتت عليه فى الحلم لم تكن ضجة استحسان وتهليل.. ولماذا كانت على وجهة التحديد ضجة ازدراء.

وهذا عيب فى نظرية برجسون بأكملها.

إنها نظرية تشرح البناء الشكلى للأحلام. ولكنها لا تفسر لماذا يحتوى الحلم على مضمون عاطفى بعينه، لماذا تأكل النار فى الحلم بيت زوجتى ولا تأكل بيت أمى..؟

إن النار هى المقابل الذى تفترضه الذاكرة للضوء الشديد الذى يقع على العين.. ولكنها تسوق هذه النار فى سياق قصصى ذى مضمون عاطفى يختلف فى كل واحد عن الآخر.. هنا السؤال.

وجواب هذا السؤال لا نجده عند برجسون.. وإنما نجده عند فرويد.

* * *

الدائرة المغلقة

أنت تنظر إلى طفلك وبخيل إليك أنه حمامة بيضاء.. ملاك برىء نقى طاهر الذيل.. ولكن فرويد له رأى آخر.. إنه يقول إن طفلك شيطان لعين.. حيوان تلوثه الرغبات والغرائز.. الغيرة.. الأنانية.. والرغبة فى التحطيم.. التلذذ بالقسوة.. والتلذذ بالبكاء.. والتلذذ بالجنس.. فى دمه.

والطفل فى نظر فرويد مخلوق جنسى يتلذذ بفمه فى أثناء الرضاع، ويتلذذ بجسمه العارى ويفرح برؤية نفسه عريانا، ويأخذ فى تحسس جسمه فى نشوة.. ويتجه بغرائزه اتجاهات غير مهذبة لا يعرف فيها الحرام من الحلال.. فهو يتجه بحبه نحو أمه ويعشقها ويغار عليها من أبيه، بل هو يحقد على أبيه ويتمنى أن يقتله «عقدة أوديب».. ثم يصطدم بالواقع.. بصغره وتفاهته وقلة حيلته وحاجته الدائمة للرعاية.. ويحاول الفرار من مشكلته بالتشبه بأبيه فيصطنع لنفسه شاربًا يرسمه بقلم الفحم ويضع فى فمه سيجارة،

ويفخم حركاته ويضخم صوته ويختال ويتكلم بلغة الواعظ.. يحدث هذا فى وعيه.. ويحدث فى باطن عقله دون أن يدرى.. وهذه هى البذرة التى ينشأ منها الضمير.

ثم يخرج من نطاق عائلته إلى الشارع.. ويخرج من أنانيته ليدخل فى علاقات حب مع أفراد من أبناء جنسه.. مع أشباهه من الأولاد.. ثم يصل إلى سن البلوغ وتتركز لذاته فى أعضائه التناسلية فيتجه بحبه إلى الجنس الآخر.. ويصطدم بالحلال والحرام وبالتقاليد والعرف والأخلاق والدين، والأصول وما يجب وما لا يجب وما يجوز وما لا يجوز. وتكون نتيجة هذا الصدام الدامى أن يدفن كل رغباته غير المشروعة فى عقله الباطن..

وتظل هذه الرغبات صاحية لا تموت.. تظل مدفونة بالحياة.. تتمطى بين وقت وآخر فى أثناء النوم لتعيش فى حلم طويل غريب..

وهذه هى نظرية الأحلام عند فرويد..

الأحلام هى بعث للرغبات الحرام المدفونة فى النفس من أيام الطفولة.. وقضاء للحاجات التى حرمنا منها بحكم الأخلاق والدين والآداب الاجتماعية.. وتحقيق لما لا يمكننا تحقيقه فى الواقع وما لا يليق أن نفكر فيه فى يقظتنا ونحن بكامل وعينا..

بل إن الأحلام كلها تحقيق لرغبة عليا، هى حراسة النوم.. فبدلا من أن نتيقظ لأن حلقنا جاف من العطش.. نحلم بأننا نشرب ونشرب ونعب من الماء المثلج.. وبهذه الحيلة نحتفظ بنومنا.

الحلم إذن هو قضاء رغبة.. وهى عند فرويد ليست أية رغبة وإنما هى رغبة طفولية.. غالبًا رغبة جنسية.. مخجلة.. مزرية..

ولأن ضمائرنا لا تنام تمامًا فى أثناء النوم.. وإنما تنعس فقط وتكسل.. لا يجد عقلنا الباطن مفرًّا من أن يصوغ هذه الرغبات المخجلة صياغة رمزية حتى لا نفطن إلى حقيقتها المزرية ونصاب بالجزع ونستيقظ.. فالذكورة مثلا يرمز لها فى الأحلام بثعبان أو شجرة أو مظلة أو عصا أو سكين.. والأنوثة يرمز لها بدائرة أو كهف أو زجاجة أو صفيحة أو باب أو علبة مجوهرات.. والجنس يرمز له بالركوب والطيران والجرى والسباحة والتسلق والرقص.. والأب يرمز له بالملك والأم بالملكة.. والموت بالسفر.. وهى كلها رموز طفلية.

ونظرية فرويد فى الأحلام هى نفسها نظريته فى الهستريا والأمراض العصبية.. فالأعراض العصبية عند فرويد

ما هى إلا محاولة رمزية للتنفيس عن رغبة باطنة مكبوتة.. فالرجل الذى يكبت إحساسًا بالذنب قد يصاب بوسواس الوضوء، وقد يعمد إلى غسل يديه مرة بعد مرة، وغسل الصابونة بصابونة أخرى وغسل فمه بالسبرتو والكولونيا والفنيك.. ويظل يحس أنه قذر بعد كل هذا..

والغسيل هو الرمز المألوف للتطهر والتوبة.

والفرق بين المريض والسليم فى مثل هذه القصة: أن السليم يحلم بهذا الرمز فى نومه أما المريض فيعيشه ويعانيه فى يقظته كعارض عصبى لايفهم معناه..

ومعنى هذا أن الدينامو الذى يولد دوافع الأحلام.. هو الطفولة ورغباتها الخام ولذاتها البدائية.. وما الدور الذى يلعبه الحاضر إلا مجرد خلق المناسبة لبعث هذه الرغبات فى الأحلام..

أنت تشتبك فى خناقة مع رئيسك فى العمل، فتحلم فى نفس الليلة بشيطان له وجه أبيك وجسم رئيسك يجثم عليك ويحاول قتلك.. لقد كانت هذه الحادثة مجرد مناسبة بعثت فى نفسك ذكرى كراهيتك الأوديبية لوالدك.

والعقل الباطن كما يتصوره فرويد لاينتظر نص الليل لينشط فى الأحلام وإنما هو يعمل أيضًا فى اليقظة.. وكل زلة

لسان تقع فيها إنما تكشف عن رغبة باطنة تحاول إخفاءها.. ولسانك حينما يزل فى لحظة فيقول.. أورفوار بدلا من أن يقول.. أهلا وسهلا.. يكشف عن رغبة باطنة فى الخلاص والهروب.. ويكشف عن نفورك من الشخص الذى تستقبله على الباب بابتسامة وبذراعين مفتوحين.

* * *

هذا هو رأى فرويد..

وعيب هذا الرأى أنه رأى محصور.. ضيق.

إن فرويد يغلق نفسه فى دائرة الجنس باعتبارها الدائرة الوحيدة التى تحتلها الدوافع الهامة المقلقة..

وهذا غير صحيح.. حتى بالنسبة لفرويد نفسه..

وكما يقول أريك فروم.. إن فرويد هذا الذى فسر الإنسان فى نومه ويقظته ومرضه وصحته بالجنس.. فرويد هذا لايمكن تفسير حياته بالدوافع الجنسية أبدًا.. فقد عاش حياته فى شبه تطهر مسيحى..

وهو يضرب مثلا آخر لضيق النظرة الفرويدية بحلم العرى..

وحلم العرى هو الذى يرى فيه النائم نفسه عاريًا أو

شبه عار فى الطريق ويشعر بالخزى والخجل والحرج من أن يراه أحد وهو بهذه الحالة المزرية.. والناس يرونه ولايلتفتون إليه.. فى حين أنه يظل محرجًا خزيانًا.

وكلنا مررنا بهذا الحلم..

وفرويد يفسر هذا الحلم بأنه بعث للرغبة الطفلية المكبوتة فى العرض وبعث للنشوة الطفلية الناتجة عن عرض الجسد عاريًا.. وهى نشوة لاتقرها اللياقة ولا الآداب العامة.. ولذلك يصاحبها إحساس بالحرج.

لماذا يصر فرويد على تفسير العرى على أنه رمز للذة الاستعراض.. لماذا لايكون العرى هو رمز للصراحة والصدق والحقيقة.. وهى صراحة تصطدم فى الواقع بالنفاق والمجاملة والتملق وتنتهى بصاحبها إلى الإحراج والزراية.

إن العرى رمز يحتمل التفسيرين.. وانحصار فرويد فى المعنى الجنسى على الدوام ليس له مايبرره.

والطفولة وحدها كباعث للأحلام.. فرض فيه كثير من التعسف فهموم الطفولة ليست وحدها الهموم المؤرقة.. وهموم الرجل الناضج ومشكلاته أكثر عمقًا من هموم الطفل.. وأكثر إثارة للتساؤل والقلق والخيال والحلم..

والخلاف بين فرويد وأريك فروم يزداد ويتسع.. ويبلغ

أشده فى تفسير رؤيا.. حلم بها فرويد شخصيًا..

وفرويد يورد هذه الرؤيا فى كتابه تفسير الأحلام..

فرويد يرى فى هذه الرؤيا أنه يتصفح كتابًا فى علم النبات.. وأنه يعثر بين صفحاته الملونة على زهرة مجففة محنطة..

ويتيقظ فرويد من هذا الحلم الغريب.. ويحاول أن يجد له تفسيرًا بطريقته المألوفة.. بأن يسترخى فى شيزلونج ويترك خواطره تتهافت عليه فى حرية..

إنه يتذكر أنه رأى فى اليوم الماضى كتابًا عن نبات السيكلامان معروضًا فى إحدى الفاترينات، ويتذكر أن زوجته كانت دائمًا مغرمة بزهور السكلامان، وأنه يفرط دائمًا فى حقها وينسى أن يشترى لها هذه الزهور..

ويتذكر أنه كتب رسالة علمية فى نبات الكوكا.. وهو النبات الذى يستخرج منه مخدر الكوكاكيين.. لو أنه تابع هذه الدراسة لكان له فضل اكتشاف الكوكاكيين.. ولكنه كان مهملا كسولا وكانت النتيجة أن اكتشف الدكتور كولر هذا المخدر وضاع عليه المجد المنتظر..

ويتذكر أيضًا أنه كان فى لقاء أحد أطباء العيون منذ أيام وجاء ذكر الكوكاكيين فى الحديث، فقال الطبيب المختص

إنه مخدر ممتاز فى جراحة العين وفى تلك اللحظة شعر فرويد بالحسد.. وتمنى لو أنه ثابر واجتهد حتى كان له فضل هذا الاكتشاف..

ويخلص فرويد من كل هذا إلى أن الحلم هو بعث أحلام المجد التى كانت تراوده وهو صغير بأن يكون مكتشفًا كبيرًا ذات يوم..

وأريك فروم يخالف فرويد فى تحليله على طول الخط.. ويقرر أن الحلم دلالة مباشرة على عقدة فرويد وعلى شخصيته المتناقضة. فهو فى الوقت الذى يشتهر فيه كعالم متخصص فى الحب والجنس.. تكاد تخلو حياته تمامًا من الحب والجنس.. والزهرة وهى رمز الجنس.. تبدو فى الحلم زهرة جافة محنطة مضغوطة فى كتاب.. لقد ضحى فرويد بعاطفته وغريزته على مذبح العلم.. وجعل من عاطفته تجربة معملية مجففة محنطة فى الكتب.. وهذا هو النقص الذى يشعر به فرويد فى أعماقه.. والذى ينعكس واضحا فى حلمه..

* * *

والنتيجة التى تؤدى لها هذه الخلافات فى التفاسير.. أن نظرية فرويد تكشف جانبًا واحدًا من حقيقة الأحلام.. وأنها

تنحصر فى هذا الجانب وتتعصب له.. فى الوقت الذى تتسع فيه الأحلام لأكثر من نظرية موضوعية..

فما هى النظريات الأخرى؟

غول.. اسمه الواقع

المرضى بأعصابهم ينامون بكثرة.. لأنهم فى الحقيقة يكرهون الواقع ويكرهون اليقظة.. ويحلمون بالخلاص من الحياة التى يفتحون عليها عيونهم كل يوم.. وهم حينما يصابون بالأرق، يأرقون من فرط قلقهم على النوم.. ومن فرط لهفتهم على النوم.

الدواء الذى يتعاطاه مرضى الأعصاب هو النوم بكثرة..

والانشغال بالأكل وسيلة أخرى لتضييع الوقت واستجلاب الوخم حتى يأتى الليل ويحل ميعاد النوم..

وفى المجتمعات الحديثة كل الناس مرضى بأعصابهم.. وكل واحد يشكو بشكوى أو بأخرى.. والواقع عندهم جميعًا ثقيل كثيف معقد متشابك..

من الصعب إن لم يكن من المستحيل أن يجد كل منا حلمه.. لم يخلق بعد النظام الذى يحقق لكل منا أحلامه..

كل النظم فى الدنيا محاولات تقريبية لتحقيق السعادة.. والسعادة نسبية.. وكل واحد له مزاج.. ومزاج واحد هو عكننة بالنسبة لآخر.

وكيف يمكن إرضاء الملايين.. كيف يمكن إرضاء مليون مزاج ومزاج.

مستحيل.. إن أى نظام يعجز عن أن يفى لكل فرد حقه.. والواقع سيظل دائمًا كثيفًا سخيفًا..

والواقع فيه صفة أخرى.. إنه وقح لايتركنا فى حالنا.. وإنما يدخل فى حياتنا كل لحظة ويقتحم علينا سكينتنا..

أصوات الآباء.. والأمهات.. والحموات.. أصوات المدرسين.. وأصوات عساكر المرور.. وأصوات الراديو والصحف والكتب.. كل هذه الأصوات تقتحمنا.. رضينا أم لم نرض..

وهذه صفة الواقع.. الاقتحام..

الواقع يخرق آذاننا ولاينتظر منا أن نرحب به أو نرفضه.. وإنما يدخل علينا عقر دارنا كما تدخل الصحيفة من تحت الباب.. وكما يدخل الماء من المواسير.. والكهرباء من الأسلاك.

الواقع يقفز إلينا من النوافذ يحمل إلينا آلاف المزعجات فى كل لحظة..

وهو أحيانًا يجاملنا وأحيانًا يضللنا.. وأحيانًا يبهجنا.. وأحيانًا يحزننا.. ولكنه دائمًا يسرقنا من أنفسنا ويفرض علينا وجوده وهو وجود مشكوك فيه، ولكننا لانستطيع أن نتحقق من تفصيلاته لأنها كثيرة.. كثيرة جدًّا.. ومتناقضة ومتشابكة ومعقدة.. طوفان من المزعجات.. ولاخلاص من هذا الطوفان إلا بالنوم..

النوم هو السد العالى الذى يرتفع أمام هذا الطوفان ويحجزه عن الوعى.. ولهذا يصبح النوم نعمة وراحة كبرى..

وكارل ج. يونج.. يعتقد أن هناك سببًا آخر يجعل للنوم هذا السحر.. إن النوم يغلق الباب على الواقع.. وفى نفس الوقت يفتح الباب الموصل لعالم الغيب.. عالم الأسرار والغوامض ومافوق الواقع.

وكارل ج. يونج.. لايعتقد أن الذى يتحدث فى الأحلام هو صوت العقل الباطن.. وإنما يعتقد أن المتحدث هو صوت الغيب..

إن حدوث الانفصال بين النفس والواقع يحقق اتصالها بعالم الغيب.. عالم مافوق الواقع.

والأحلام هى الحكمة العليا التى تبثها فينا هذه الأصوات الغيبية وهو يروى هذا الحلم الغريب الذى شاهده أحد مرضاه.

المريض يحلم بأنه يدخل قاعة جوها رهيب.. وكل من بالقاعة.. صامت لايتكلم.. وعلى الجدار لافتة مكتوب عليها.. قاعة التأملات.. وهناك صوت يرتل..

إن الدين ليس زهدًا وليس رفضًا للحياة.. إنه الرغبة فى الحياة وقد بلغت مداها وغايتها وأشدها فأصبحت دينًا..

ويعزف الأرغن مقطوعة لفاجنر اسمها سحر النار.. ثم يخرج المريض من القاعة ليرى على البعد نارًا متوهجة خلف الجبل، ويشعر أن هذه النار التى تشتعل منذ الأزل والتى لن تنطفئ، لابد أن تكون هى النار المقدسة..

وكارل يونج يعتقد أن هذه النار رمز للمقدرة الإلهية.. وأن الحلم من أحلام الإلهام..

ويونج بهذا يختلف عن فرويد بشدة.. فبينما يعتقد فرويد أن الحلم عودة إلى الماضى وإلى الطفولة بتخريفها وهذيانها.. يعتقد يونج أن الحلم إشارة المستقبل.. وإلهام من الملأ الأعلى.

وأريك فروم مفكر عصرى يقف على أرض محايدة بين الاثنين..

وهو لايلغى احتمال حدوث الإلهام.. واحتمال حدوث الاتصال الغيبى فى الأحلام.. ولكنه يقول إن هذه حالات نادرة..

وهو يفسر حدوث التنبؤ فى الأحلام بنظرية متواضعة..

إنه يقول إن النوم يمنحنا الفرصة الذهبية التى ننتظرها.. فرصة خلوتنا بأنفسنا..

إن الواقع الذى يطاردنا فى يقظتنا ويقتحم علينا حياتنا يسرقنا من أنفسنا على الدوام.. ولايمكننا من أى خلوة حقيقية.. ونحن نظل ضائعين فى ضوضائه حتى يسدل النوم علينا النوافذ ويغلق الأبواب فنبدأ فى خلوة حقيقية.. ليس فيها صوت غير صوتنا.. ونبدأ فى التفكير على هدى هذا الصوت.

والأحلام هى هذا التفكير..

وهو تفكير يحتوى على طفولتنا وصبانا وشبابنا وحاضرنا ومستقبلنا.. لأنه تفكير فى همومنا كلها.. ومن التعصب أن نزعم أنه قاصر على طفولتنا.. أو مستقبلنا.. أومشاكلنا الجنسية..

إنه تفكير شامل.. وانشغال شامل.. يحتوى على كل هموم الشخصية بكاملها..

وهو تفكير يمتاز أحيانًا بالصفاء لأنه يخلو من تشويش

الواقع.. ولذلك تأتى بعض تنبؤاته صادقة ومفاجئة لنا فى يقظتنا..

ويونج يروى هذا الحلم..

صاحب الحلم يحكى أنه كان فى مقابلة هامة مع أحد رجال الأعمال بشأن الاتفاق فى مشروع تجارى مربح.. وأنه خرج بعد المقابلة مقتنعًا بأن شريكه رجل أعمال ممتاز.. وأن الإشاعات الكثيرة التى سمعها عن نزاهته وكفاءته فى محلها.. ولهذا صمم على البدء فى المشروع وعقد الشركة معه..

وفى نفس الليلة يحلم حلمًا غريبًا.. أنه يرى شريكه يزور فى الحسابات.. ويزيف فى أوراق الشركة ليغطى اختلاسات كبيرة اختلسها من الخزينة..

ويتيقظ مندهشًا.. ولكنه مايلبث أن يطرد الحلم على أنه وسوسة شيطان.. ويتعاقد مع شريكه ويسرعان فى العمل.. وما تكاد تمر شهور حتى يفاجأ باختلاسات جسيمة فى رأس المال وتزييف فى الأوراق ويكتشف أن المزيف هو شريكه..

ويونج يفسر هذه النبوءة.. بأن الحكم على هذا الشريك فى أثناء المقابلة التى تمت فى الواقع كان مستحيلا.. لأن الإشاعات عن نزاهته كانت تسبقه فى كل مكان.. وكانت

تحيطه بضوضاء من الصعب استبعادها فى أثناء الحكم عليه.

ولكن الذى حدث أن النوم استبعد هذه الضوضاء بالفعل.. فأمكن للعقل أن يستعيد انطباعاته وأن يرتبها فى صفاء وأن يستخرج منها الحكم الصحيح.

إن نظرة هذا الرجل نظرة لص.. هكذا قال صاحبنا التاجر بعد الحادث بشهور.. ولكنه لم يستطع أن يستشف هذه النظرة فى حينها لأنها كانت محاطة بهالة من الضجة والدعاية..

لم يستطع أن يستشفها إلا حينما تذكرها وهو يحلم..

وهكذا تكون تنبؤات الأحلام خالية من معنى التنبؤ.. وإنما هى تفكير يستشف المستقبل ويتعرف عليه لأنه يستخدم نوعًا صافيًا مركزًا من التأمل.. والفراسة..

والحكمة التى تبدو فى بعض الأحلام لاتعدو كونها نتيجة لصفاء الفكر واستغراق الحواس فى خلوة النوم وهدوئه..

لايوجد فى الأمر غيب.. ولا إلهام.. إنما هى فراسة العقل الباطن..

الأحلام تفكير.. وهى ليست دائمًا إشباع رغبة كما يقول فرويد.. فأين وجه إشباع الرغبة فى الأحلام المرعبة والكابوس.. إننا لانرغب فى الرعب.. ولا فى الألم..

ومن الواضح أن كلام يونج لاينسحب على رؤيا النبوة.. إنما يختص بالحلم العادى الذى هو حديث النفس فى أثناء النوم.. وهو لاينفى رؤيا النبى التى هى صورة من صور الوحى وحالة من حالات الاتصال بين الله والإنسان.

* * *

والأحلام تستخدم كل الرموز الممكنة.. ولاتعتمد على الرموز الطفولية وحدها.. ولا الرموز الجنسية وحدها..

فالأرنب يمكن أن يكون رمزًا للجبن لأن معناه مرتبط بالجبن.. والرجل الذى يبدو فى الحلم فى صورة رجل ضخم الجثة وله رأس أرنب.. يكون معناه أنه إنسان أجوف فى الظاهر مثل شمشون وفى الحقيقة خواف يرتجف من خياله.

وأحسن من يفك هذه الرموز هو صاحب الحلم نفسه لأنه هو الذى وضعها.. وتكون الطريقة بأن يستعرض هذه الرموز واحدًا واحدًا.. ويربط كل رمز بالخواطر التى تتهافت على ذهنه.. والخواطر المتعلقة بكل رمز هى فى الحقيقة القاموس الذى يحتوى على مفتاحه ومعناه..

وسوف نفهم أكثر حينما نحاول أن نفسر أحلامًا كاملة بطولها..

اكتشاف

شاب أعزب عمره ٣٠ سنة يعانى من إحساس حاد مزمن بالقلق.. وتنتابه رغبات هستيرية يتخيل فيها أنه يحطم كل شيء ويقتل كل من يعبر طريقه.. وتنتهى النوبات بشعور ثقيل بالذنب ورغبة فى الانتحار..

حاول الانتحار عدة مرات..

يعتقد أن انتحاره سيخلص الإنسانية من شر مستطير مستعص.. وأحيانًا يتخيل أنه بعد انتحاره سيولد من جديد فى صورة إنسان فاضل خير ملاك..

حياته فى أثناء طفولته كانت حياة تعسة..

أبوه رجل متسلط متحكم خشن الطباع.. يعنفه ويضربه لأتفه الأسباب.. وأمه تؤكد له فى كل مناسبة أنه لولا وجودها بجانبه لضربه أبوه حتى الموت..

وأمه مريضة بداء الحنان تختلق أسبابًا لإثارة رعبه..

وتحكى له عن العفاريت وتقول له إن الغولة ستخطفه.. ثم تضمه إلى صدرها لتمثل دور المنقذة وتقول له.. لولاى لأكلتك الغولة.. تعال فى حضنى.. طالما أنت فى حضنى لا شيء يستطيع أن يطولك.. لا أحد يستطيع أن يمد يده إليك طالما أنت بين ذراعى.. طاوعنى وأنا أعلمك كيف تكون رجلا.. وكيف تكون خشنًا مرهوب الجانب.. أقوى من أبيك..

ذكرياته عن ميلاد أخيه هى مزيج من الخوف المبهم والغيرة والحقد.. وهى مشاعر ما لبثت أن تحولت إلى عدوان سافر حينما اختص أبوه هذا الطفل الجديد بحبه وحنانه..

فى سن الخامسة تحول البيت إلى معسكرين واتخذ كل من الأبوين ولدًا من الاثنين يخصه بالحب ويبسط عليه ظل حنانه ورعايته. وانعكس العداء بين الأبوين عداءً بين الطفلين.. ومن تلك اللحظة بدأ شعور بالكراهية يغزو قلب الطفل الصغير.. كراهية لأبيه ولأخيه.. رغبة فى أن يموت الاثنان وينفرد هو وأمه بالبيت..

وهى مشاعر كانت تقترن بإحساس بالذنب وثورة يكبتها الطفل فى أعماق اللاشعور يومًا بعد يوم..

وفى الوقت الذى كانت الهوة فيه تتسع بين الطفل

وأبيه.. كان الطفل يزداد قربًا من أمه.. فهى دائمًا التى تقدم له الحل السعيد.. طالما أنت فى حضنى لا أحد يستطيع أن يطولك.. لا توجد يد تستطيع أن تمتد إليك بالايذاء.. طاوعنى وسأعلمك كيف تكون خشنًا أقوى من أبيك..

وحنان أمه المريض يزيد فى كراهيته لأبيه والكراهية تنمو وينمو معها شعور جارف بالذنب..

وفى سن الثلاثين يتحول الصراع الباطنى إلى عصاب.. رغبة هستيرية فى الانتحار والخلاص.. وفى التحطيم.. والقتل.. تعقبها حالات من الذهول والهبوط النفسى والشعور بالإثم والخطيئة..

والمريض يروى هذا الحلم الذى يتكرر ليلة بعد أخرى..

إنه يحلم أنه يصعد على جبل.. وأن على يمينه ويساره طول الطريق صفوفًا من القتلى.. وفى القمة.. تجلس أمه فى انتظاره مادة ذراعيها..

وحينما يصل إلى القمة يتحول فجأة إلى طفل جالس فى حجرها..

ويستيقظ من نومه وهو يرتجف من الرعب.. والحلم

ترجمة آمينة لتفكير عقله الباطن بأسلوبه الرمزى البسيط الواضح..

إنه يصعد.. ولا سبيل إلى الصعود فى الحياة فى نظره إلا بقتل كل المنافسين.. هكذا يصور له شعوره الطفولى..

إن رغبته الطفولية فى قتل الأب والأخ تتحول إلى رغبة فى قتل كل منافسيه..

وهو يستمد القوة والطاقة لكل هذه الكراهية من أمه.. وأمه فى الحلم تناديه من أعلى الجبل مادة ذراعيها.. تعال إلى حضنى ولا أحد سوف يطولك.. طاوعنى وسأعلمك كيف تكون أقوى من أبيك وأقوى من كل الناس..

ولكنه حينما يصل إلى ذراعيها لا يجد الراحة ولا الأمان اللذين يحلم بهما دائمًا.. على العكس يشعر بالقلق والفزع لأنه حينما يبلغ هذه القمة لا يصبح رجلا وإنما يتحول فجأة إلى رضيع فى حجر أمه..

إن أمه كانت تخدعه.. إن حنانها لن يوصله إلى شىء.. إن ارتباطه بها وبحبها سوف يعود به إلى حجرها على الدوام.. رضيعًا.. لا يبلغ سن الرجولة أبدًا..

العقل الباطن هنا يضيف حكمته وبصيرته إلى المشكلة.. إنه يفكر ويقدم فراسته ورأيه إلى المريض..

والقصة الثانية بطلها طبيب شاب عمره ٢٤ سنة يعيش حياة خاملة عادية.. يذهب إلى المستشفى بحكم العادة.. ويعالج المرضى بمقتضى الروتين.. يعود فى فتور إلى البيت حيث يجد أمه.. وأمه تتولى كل أموره.. وترتب له حياته ومواعيده وتختار له أصدقاءه وصديقاته وهى حينما تلاحظ أنه يبدأ يميل لواحدة من هؤلاء الصديقات ويهتم بها، تذم فيها لتصرفه عنها.. وهو أحيانًا يثور ولكن ثورته تنتهى باعتذار وقبلة على جبين أمه.. وإحساس بالندم.. ثم تعود الحياة لتتكرر فاترة يومًا بعد يوم..

وهو فى طريق عودته إلى البيت كل يوم فى المترو يلتقى فى الديوان بحلقة من الموظفين يتحدثون ويدخنون.. وحديثهم فى العادة لا يخرج عن ثلاثة أشياء.. العلاوات.. وأزمة المساكن.. ومزاج المدير..

يومًا بعد يوم يسمع هذا الحديث.. ويشعر فى أعماقه أن هؤلاء الناس ميتون فى الحقيقة لا يعيشون.. وأنه مثلهم ميت.. لا يعيش.

وفى إحدى الليالى يحلم بهذا الحلم الغريب.. إنه واقف يتفرج على تمثال من الرخام وإلى جواره امرأة فى يدها أزميل تنحت من الرخام تمثالا لرجل..

ولكن الرجل الرخام ما يكاد يستوى كاملا حتى تدب فيه الحياة فيتحرك فى ثورة إلى المرأة التى نحتته فيقتلها.. ثم يستدير إلى الطبيب ويجرى خلفه.. يهرب الطبيب مذعورًا يطارده التمثال ثم يشتبك الاثنان فى صراع مميت وتخطر للطبيب فكرة.. أنه إذا استطاع أن يجرجر ذلك الوحش إلى الداخل حيث تجلس أمه فقد تستطيع أن تساعده وهو يجرى فعلا ويدخل به إلى غرفة الأم.. ولكن الشىء الذى يدهشه أن أمه تنظر إليه بلا مبالاة وتكاد لا تلحظ وجوده وتنصرف إلى ثرثرتها مع ضيوفها..

ويهمس الطبيب فى نفسه.. هكذا كنت أقول دائمًا.. لا أحد يهمه أمرى.. لا أحد يمكن أن أعتمد عليه سوى نفسى.. ويبتسم فى راحة ويستيقظ من النوم.

الحلم صورة مشروحة بالصور للمشكلة.. إن الطبيب يشعر فى أعماقه أنه مسخوط على هيئة تمثال رخام.. وأنه ميت لا يشعر ولا يعيش.. أن أمه هى التى نحتت منه هذه الصورة المتحركة التى يراها الناس.. وهو فى نفس الوقت يكره أن يكون صنيعة أمه وأن يكون ملك يمينها.. ويعبر عن هذه الكراهية فى الحلم بثورة التمثال على صانعه وقتله..

ولكن الصراع فى الحقيقة ليس بينه وبين أمه بقدر ما هو

بينه وبين نفسه.. إنه منقسم فى الحلم إلى صورتين.. التمثال والمتفرج.. وهو يشتبك مع نفسه فى النهاية.. مع نفسه الثائرة الساخطة.. فى محنة عذابه.. يفكر فى أنه ربما لو أنه دخل إلى غرفة الأم ليشكو لها.. ربما استطاعت أن تجد له مخرجًا.. ولكن ما يكاد يدخل عليها حتى يلاحظ أنها لا تكاد تدرك وجوده.. وأنها منهمكة فى الثرثرة مع ضيوفها.. وهنا يهمس إلى نفسه.. أو يهمس إليه عقله الباطن فى الحقيقة.. لم أقل لك أن لا أحد يهمه أمرك.. وأن الحل هو أن تعتمد على نفسك..

وهو يبتسم فى راحة.. قد شعر أنه وجد طريقه أخيرًا..

* * *

ونفهم من هاتين القصتين أن الحلم ليس هذيانًا.. وليس بعثًا مكررًا لمشكلات الطفولة، وإنما هو فى الحقيقة بعث جديد فيه خبرة العقل الباطن وحكمته وبصيرته.

إن الطبيب لم يكن يعلم فى يقظته أنه صنيعة أمه إلى هذه الدرجة.. إلى درجة أنه تمثالها الحجرى..

هذا اكتشفه العقل الباطن..

وبالمثل لم يكن صاحب الحلم الأول يدرك فى وعيه أن أمه هى التى حشدت فى قلبه كل هذه الكراهية.. وأنه لن

يصل بارتباطه بها.. إلى أكثر من التقهقر إلى طفولته الأولى..

* * *

والحوادث والقصص والمسرحيات التى نقرؤها لكبار الكتاب ونظن أنهم يكتبونها بوعيهم.. هى فى الحقيقة مثل الأحلام.. إشعاع عقولهم الباطنة..

وهى مثل الأحلام قابلة للتفسير..

حدوتة «تيامات» البابلية صورة من هذه الأحلام..

والحدوتة تحكى أنه فى سالف العصر والأوان كانت تحكم الدنيا إلهة أنثى اسمها تيامات.. وكانت هذه الربة الأنثى تحكم الكون كله بما فيه من ذكور، ولكن الذكور ما لبثوا أن ثاروا على حكمها واختاروا مردوخ قائدًا لهم وأعلنوا الحرب عليها..

وقبل أن ينصبوا مردوخ قائدًا.. قاموا باختباره..

وتقول الخرافة..

إنهم وضعوا على المائدة ثوبًا..

وأشاروا إلى مردوخ قائلين..

أتستطيع أن تقول للشىء كن فيكون.. أتستطيع أن تفنى

هذا الثوب بكلمة.. وتخلقه من العدم بكلمة من شفتيك..

وتكلم مردوخ.. وقال للثوب كن فكان.. فرقص الآلهة الصغار فرحًا.. وقالوا..

مردوخ أنت قائدنا.. اذهب فحارب الالهة تيامات..

وذهب مردوخ ليحارب تيامات وبعد صراع دموى طويل.. انتصر عليها وقتلها.. وأصبح الإله الواحد الذى يحكم الكون كله بما فيه من إناث..

والقصة حلم ومحتوياتها الرمزية تفسر نفسها بنفسها..

الاختبار الذى اختبر به الآلهة الصغار مردوخ يكشف عن الحسد الأكال بين الرجل والمرأة..

والرجل منذ الأزل يحسد المرأة حسدًا أكالا لأنها قادرة على الخلق ولأنها تستطيع أن تحمل وتلد وتجدد نفسها بنفسها.. وهو بجانبها ضئيل.. دوره ثانوى.. مجرد متفرج..

والمرأة هى الخالقة بالفعل والأم بالفعل لكل الذكور ولكل الإناث.. والرجل دوره تافه.. ماذا يفعل الرجل ليثبت أنه خالق مثل المرأة ومبدع مثلها..

ليس أمام الرجل إلا أن يبدع الكلمة ويخلق الفن والفلسفة والفكر والقانون والدين.

وهذا هو ما حدث بالفعل..

ولقد بدأت الحضارة بسيادة المرأة لأنها الوحيدة التى كان فى استطاعتها أن تتحقق من نسب أطفالها.. هى الوحيدة التى تستطيع أن تقول.. هذا ولدى.. أما الرجل فلم يكن يستطيع أن يقول هذا ولدى فما هو إلا واحد من عشرات.. دوره ليلة عابرة فى حياة الأم.. لا أحد يدرى من الذى وضع البذرة.. ولهذا بدأ تاريخ القبيلة بسيادة المرأة.. باعتبارها الأم الحقيقية للجميع..

وبعد صراع دموى انتقلت السيادة إلى الرجل حينما اخترع الكلمة.. ومن الكلمة صنع الفن والفكر والعمارة والحضارة.. وأصبح مفكرًا وقائدًا .. وفيلسوفًا.. ونبيًّا.. وتضاءل دور المرأة إلى مجرد الحبل والولادة..

ومن هنا كان اختبار مردوخ فى الخرافة وكان السؤال الذى وجهه إليه الذكور الصغار الذين يحلمون بالألوهية..

أتستطيع أن تخلق من العدم بكلمة من شفتيك..

إن الصراع بين الآلهة فى الحدوتة هو رمز الصراع بين الجنسين.. افتخار الذكر بقدرته على الخلق بكلمة من شفتيه.. نتيجة لحسده للمرأة لقدرتها على الخلق والتجسيد بالحمل والولادة..

وما زال صراع الرجل والمرأة قائمًا إلى الآن.. الرجل يحاول أن يسيطر بفكره ومنطقه وقوة نفوذه الاجتماعى

وسلطته.. والمرأة تحاول إخضاعه بإثارة غريزته وحبه وحنانه وشوقه إلى الأسرة والأطفال..

مازالت هذه الحدوتة هى العقل الباطن للبشرية كلها ورمز الحرب المستمرة بين الرحم.. وبين الكلمة..

* * *

ومعنى هذا كله أن العقل الباطن ليس مجرد دينامو للأحلام، ولكنه دينامو كبير.. ومحطة توليد كهربائية لكل النشاط البشرى فى النوم واليقظة.. والخيال.. والحلم.. والحقيقة.. إنه القوة الخفية التى تشكل الوعى واللاوعى.. وتشكل الفن.. وتشكل الحضارة.. وتشكل التاريخ..

* * *

فسر أحلامك.. تفهم نفسك.. وتفهم الإنسان.

الحلم الذى رَأيته

فى الليلة الأولى كان الحلم كالآتى:

أنا ماش فى طريق من طرق القاهرة القديمة.. الشارع مبلط ومبلل بالمطر ومهجور.. وأنا أسرع الخطا لأصل إلى الحسين.. أريد أن أزور الحسين.. وأركب تراماً..

والترام الذى أركبه ترام قديم ذو عربة مفردة مثل قطارات الترام الذاهبة إلى السيدة سكينة وإلى السيدة نفيسة.. ومع أن المنطقة شعبية مزدحمة إلا أن الترام يبدو مهجوراً وخالياً وهو ينتقل من شارع مهجور إلى زقاق مهجور إلى خلاء موحش.. إلى مكان أكثر وحشة.. إلى مكان كالخرابة..

وأنزل فى هذا المكان الخرب الموحش لأذهب إلى الحسين..

وأبحث عن منزل الحسين..

وأعثر على سرداب تحت الأرض.

هذا السرداب سوف يوصلنى إلى الحسين.

وأنزل فى السرداب..

ويوصلنى السرداب إلى جب مظلم.. وأنزع بضعة قطع من الخشب تسد طريقى وأنزل أكثر.. وأشعر بالضيق والحر فأخلع ثيابى وأصنع منه وسادة أضعها على أرض الجب..

ولأول مرة منذ بداية هذا الطريق الطويل الشاق أشعر بالراحة.. ويدخل بصيص من نور من طاقة فى السرداب.. وأحس أنى وصلت.. وأنى الآن أستطيع أن التقى بالحسين.. ثم أصحو من الحلم..

والحلم صورة رمزية واضحة للانتقال إلى الآخرة ولعملية الدفن.. والخروج من الخشبة والنزول إلى باطن الأرض وخلع الثياب..

ولقاء الحسين رمز الالتقاء بعالم الروح.

والإحساس بالراحة بعد مشقة المشوار.. وبصيص الفجر هو رمز لشقاء الحياة وراحة الموت.. والخلاص.. والنجاة من عذاب الدنيا..

ومعنى الحلم إذا كان من أحلام الإلهام والنبوءة.. أنى سوف أموت قريبًا والعياذ بالله.

والحلم الثانى فى الليلة الثانية يؤكد هذا المعنى بصورة أخرى ورموز أخرى..

وأنا فى هذا الحلم الثانى يأتينى نبأ بأنى مطلوب للعمل فى المجلة المسائية.. وحينما يأتينى النبأ أحتج بشدة.. وأقول إنى محرر بمؤسسة روزاليوسف.. ولا أستطيع أن أترك العمل بروزاليوسف.. وأسرة روزاليوسف.. هى أسرتى ولا أستطيع أن أعمل خارج أسرتى.. وأنا أقول هذا الكلام بيأس وفزع غير مفهومين..

ولكن الصوت الذى ينبئنى يعود فيقول لى بشدة وصرامة.. أنت منقول إلى المجلة المسائية.. ورئيس تحرير المجلة المسائية قد طلبك بالاسم فأقول فى فزع.. ومن هو رئيس تحرير المجلة المسائية.. فيقول لى الصوت.. رئيس تحرير المجلة المسائية هو.. سلامة موسى.. وقد طلبك بالاسم.. فيسقط فى يدى من الرعب.. وأصحو من النوم.

وسلامة موسى كما هو معروف انتقل إلى رحمة الله..

وهذا يعنى أن المجلة المسائية ليست إلا رمزًا.. إن معناها فى الحلم.. مجلة الظلام.. وسلامة موسى يطلبنى من عالم الظلام..

أنا منقول بالأمر إلى عالم الظلام..

وهذا هو سر الفزع..

الفزع سببه مدلولات الرموز وليست الرموز فى ذاتها..

وأنا أكاشف هذه المدلولات فى أثناء حلمى..

أنا أفهم بعقلى الباطن أن هذا الحلم إعلام بالموت..

وفى الليلة الثالثة يطاردنى نفس المعنى فى حلم آخر..

أنا أقرأ كتابى.. المستحيل.. وأتمشى ذاهبًا آيبًا فى مكان خلاء مضىء مشمس.. وحولى حقول وخضرة..

.. ولكنى أفاجأ فى أثناء القراءة بأن هناك صفحات كاملة مكتوبة بقلم إبراهيم ناجى.. صفحات نقد للقصة ومناقشة لحوادثها..

وأشعر بالدهشة وأصحو من النوم..

وإبراهيم ناجى كما هو معروف مات من سنوات وانتقل إلى العالم الآخر.. فكيف يتأتى له أن يناقشنى الحساب.. مامعنى أن نتجاور كلانا فى صفحات كتاب واحد.

إن الجوار الذى يمكن أن يضمنا هو جوار الرفيق الأعلى.. جوار الموت.

بهذا المعنى الرهيب تنطق الأحلام الثلاثة المفزعة.. والغريب أنها تطاردنى فى ثلاث ليال متوالية.. وأن فيها ثلاثة أسماء لثلاثة سفراء من عالم الموتى..

سيدنا الحسين.. وسلامة موسى.. وإبراهيم ناجى.. الثلاثة على موعد معى.. رانديفو..

يبدو فى الغالب أنه رانديفو فى الجنة لأن أماكن اللقاء فى حقول مزهرة مخضرة.. وفى حضرة ولى من أولياء الله الصالحين.

ولكنه رانديفو مفزع على أى حال..

وقد سألت نفسى باعتبارى أخصائى أحلام.. عن معنى تواتر هذه الأحلام المتشابهة فى ثلاث ليال متتالية.

هل يكون انشغالى بفكرة الموت.. هو السبب..

لقد كنت مشغولا منذ شهور بكتابة الصفحات الأخيرة من كتابى لغز الموت.. وهو كتاب يبحث فى هذا السؤال الواحد المحير.. معنى الموت.. وكنت مريضًا ومشغولا طوال هذه المدة على صحتى..

ولكن انشغالى بهذه المشكلة قديم.. وأنا منذ سنوات أفكر فيها تلقائيًا كل ليلة.. فما الذى بعثها فى عقلى الباطن فى هذا الوقت بالذات..

أعتقد أن الحدث المباشر الذى حرك المشكلة فى باطنى.. هو وفاة زميلنا الحبروك فجأة.. وفاة أشبه بالاغتيال.. أشبه بطلقة مسدس من الداخل.. من القدر..

والوفاة فجأة هكذا.. حادث يروع العقل ويشله.. لأنه حادث بلا منطق.. وبلا مقدمات..

والثمرة لم تقع من شجرتها لأنها نضجت وعطبت.. وإنما سقطت وهى خضراء.. فقد مات الحبروك وهو فى نضرة شبابه..

لماذا مات هكذا فجأة..؟؟!!

إنها.. لماذا.. عقيمة.. بلا جدوى.. بلا فائدة.. بلا جواب شاف..

وهى لهذا تتحول إلى محنة.. وعذاب.. وخوف.. وفزع..

إن أركان الحدث.. تشبه أركان جريمة بلا دوافع.. وفاة فجائية بنزيف فى المخ.. انفجار شريان ونزيف قاتل بدون مقدمات..

القدر يبدو سفاحًا طليقًا يقتل ويسطو ويذبح بلا منطق..

وفى أمثال هذه الحوادث يلوذ العقل الباطن بنفسه وينكمش على ذاته رعبًا.. كما يلوذ عابر الطريق بالجدار حينما يفاجأ باثنين يتقاتلان فى وحشية فى الشارع..

إنه يشعر أنه فى حضرة سفاح مجنون بلا عقل يمكن أن يرتكب أى جريمة فى أى وقت بلا مقدمات أو أسباب.. وهو لهذا ينكمش فى ثيابه ويلتصق بالحائط ويرتجف رعبًا.

وهذا هو ما حدث لعقلى الباطن حينما اصطدم باللامعقول.. بهذا الحادث الغادر.. فانبعثت منه هذه الأحلام المرتجفة..

ومرة أخرى شعرت أن هذا التفسير غير كاف..

وعدت أفكر من جديد..

وبشكل تلقائى ارتبطت كلمة الجنازة فى ذهنى بكلمة الجوازة.

هل أنا أفكر فى الزواج.. وأشعر فى نفس الوقت بالخوف من الزواج ويقترن التفكير فى الزواج بالموت فى عقلى الباطن.. جايز..

إن الدفن فى كتب التفاسير القديمة رمز للزواج.. وهناك ترادف بالفعل فى وجداننا الشعبى بين كلمات مثل: الدخلة.. والخرجة.. والدفن والجنس..

والنزول إلى المقبرة يمكن أن يكون هو النزول إلى بيت الزوجية - والنزول إلى الخشبة يمكن أن يكون هو النزول إلى الكوشة.. بدليل إحساس الراحة والوصول.. وبدليل بصيص النور الذى شاهدته فى المقبرة وهى أشياء لا يفسرها الموت ولا يمكن أن تكون أحاسيس ما بعد الموت بالنسبة لعقل باطن يرتجف ذعرًا من الموت ومن

سيرته.. والالتقاء بالحسين يمكن أن يكون رغبة فى مصاهرة عائلة طيبة صالحة وكتاب المستحيل.. فى جو من الخضرة والماء والخلاء.. يمكن أن يكون رمزا لتحقق المستحيل.. والمستحيل فى القصة كان زواج الحبيبين واستدعاء سلامة موسى لى.. وأوامره المشددة لى.. يمكن أن يفهم منه التذكير بآراء سلامة موسى.. فى هذا الموضوع..

وسلامة موسى تزوج فى سن مبكرة، وكان يرى أن الزواج ضرورى، وكانت له نظرية فى الزواج حتى مع عدم وجود الكفاية الاقتصادية.. ومع عدم توفر القدرة على فتح بيت.. وذلك بأن يتزوج الرجل.. فتاته.. وتظل مقيمة عند أهلها.. سنوات.. وهى متزوجة وتلتقى بزوجها كل أسبوع فى الإجازة لقاء الأحباء لتعيش معه ساعة فى التبات والنبات مع مراعاة ضبط النسل.. حتى يأتى فرج الله.. ويستطيع زوجها أن يفتح لها بيتًا مستقلا.

وبهذا تكون الأحلام الثلاثة مدلولات رمزية للتفكير الملح فى مسألة الزواج مع خوف باطنى شديد من الإقدام على هذه الخطوة. حيث تقترن فى عقلى الباطن بالإقدام على الموت.

وقد كان هذا هو ما يؤرقنى فى تلك الأيام بالفعل.

وهذا يعنى أن النظريات التقليدية فى تفسير الأحلام غير كافية لوضع منهج كامل يتطابق مع كل حالة فردية ويفسرها.

لا يمكن قبول تفسير فرويد الجنسى على أنه رأى نهائى عام ينطبق على الأحلام جميعها.. ولا يمكن قبول فكرة الإلهام والنبوة ليونج على أنها تفسير لكل حلم.. ولا يمكن التسليم مع برجسون بأن الحلم مجرد نشاط ذاكرة.

لأن الحلم فى النهاية حادث شخصى بحت.. ذاتى بحت.. إنه رؤيا سرية.. ومكاشفة سرية بين الشخص وبين نفسه.. وتفكير ذاتى فى أخص خصوصياته.

إن صاحب الحلم هو الذى يضع نظريته.. وهو الذى يضع رموزه.. وهو الذى يمتلك مفتاح هذه الرموز وقاموسها ومدلولاتها..

وبالرغم من تشابه النفوس الانسانية فإنها تختلف بعد هذا اختلاف بصمات الأصابع.. فيصبح لكل نفس منطقها..

ولهذا لا توجد فى رأيى نظرية عامة لتفسير الأحلام، وإنما توجد نظريات متعددة لها تطبيقات متعددة مختلفة بعدد الناس الذين يحلمون.. لكل شخص شفرته السرية.. وحتى هذه الشفرة الشخصية لا تنطبق على الشخص فى كافة

مراحله.. إن كل مرحلة من مراحله لها نظرتها.. ولها رموزها ومدلولاتها.. وهمومها.. ولها مدخلها الخاص إلى التفسير.

والنظريات الموجودة هى إرشادات ضرورية وهامة على الطريق.. وتدريب على التفكير النفسى.. مثل تدريب قصاص الأثر.. ليستطيع كل واحد بعد هذا أن يقتص أثر أفكاره ومشاكله.. ويتعقبها.. ويكتشفها فى ملابسها التنكرية كما تتبدى فى أحلامه..

والجهد فى النهاية جهد شخصى ذاتى.. على كل فرد أن يكتشف نظريته.. لا فى فرويد.. ولا فى يونج.. ولا فى برجسون.. ولكن فى نفسه.

إن هؤلاء العلماء مدربون يقدمون إرشادات واقتراحات لتنوير الطريق الذى نسير فيه عبر الحواجز والعقبات لنصل إلى نفوسنا..

ومن خلال محاولاتنا لقفز هذه الحواجز.. يكتشف كل منا أسلوبه.. ويكتشف شفرته السرية.. والنظرية التى ينظر بها إلى العالم بعقله الباطن.

***

حقيقة الحب

اللـذة

منذ أيام بدأت أطالع فى كتب علمية كبيرة ومراجع من ألف صفحة. وعدت إلى نفسى القديمة، إلى الطبيب القديم، الذى يضع كل شىء فى مخبار ويقيسه ويزنه ويحرقه فى بوتقة ثم يذيبه فى ماء مقطر ويضع فيه ورقة عباد شمس..

وأحسست أنى كلما توغلت فى القراءة العلمية.. تغير طعم الحياة فى فمى.

إن النسيم ليس نسيمًا يستحم فى الضوء ويشعشع روحى ولكنه نتروجين وأكسوجين وثانى أكسيد كربون ونشادر.. وهليوم، وأراجون.. وغبار.. وذرات ماء معلقة.. وأشعة كونية.

والبحر ليس بحرًا، ولكنه أملاح صوديوم، وبوتاسيوم ومغنسيوم وكالسيوم.

ورغيف الخبز ليس رغيفًا طريًّا شهيًّا، ولكنه مواد كربوإيدراتية، وبروتينية، ودهنية. وفيتامينات.

و سير المانجو اللذيذ، عبارة عن جلوكوز، وفركتوز. وسكروز.

حتى القبلة الممتعة، ليست سوى تدفق هرمونات فى الشرايين.. وافرازات حمضية عند أطراف الأعصاب.

ولهفة اللقاء ليست سوى هبوط فى الأحشاء وانخفاض فى ضغط الدم.

ولوعة العشق ارتفاع فى نسبة التستوستيرون والأسترين..

وذكريات الحب الجميلة وخيالاته مجرد مواد ومركبات.

وقصائد شكسبير الخالدة، كانت قبل أن يكتبها أحماضًا وقلويات فى ذهنه.

شىء لا يطاق.

وألقيت بالكتب الكبيرة، والمراجع الضخمة من ألف صفحة.

إن إحساسى وأنا أقبل حبيبتى أنى أعطيها شربة هرمونات.. إحساس يغيظ.

ومنظر مصرانى الغليظ وهو يهبط فى أثناء نظرة حب ملهوفة.. يقتل الحب.. ويقتلنى من الاشمئزاز.

وتصور لحظات الفراش الممتعة على شكل سحاحة ومحاليل عيارية. شىء لا يحتمل.

إننا نشعر بالسعادة لأننا لا نتفرج على أنفسنا ونحن سعداء ولا نحلل طبائعنا فى أثناء لحظة السرور.. وإنما نعيش هذه اللحظة ونندمج فيها.. ونكون نحن واللحظة شيئًا واحدًا، أما رجل العلم فيستأجر لوج ويتفرج فيه على نفسه ويحللها ويقطعها نصفين.. ثم يقطع النصف نصفين ثم يعصر عليه لمونة.. ويراقب التفاعل، ويسجل النتائج فى ورقة.

إنه يضحى بمتعة الشعور فى سبيل متعة المعرفة.. وهو لهذا رجل مستريح على الدوام. بعيد عن زوابع القلق، لأن استمتاع المعرفة مثل استمتاع الشطرنج، هادئ مسترخ على مقعد، أما لذة العاطفة، فهى فوران وغليان وحركة فى داخل الوجود كله.

إن الطبيب حينما يكشف على امرأة عارية لا ينظر إليها بقلبه، ولكنه ينظر إليها بعقله.. إنه يقطع صلة الشعور التى تربطه بمريضته، ويكتفى بالتفرج.. وهو لهذا لا يبكى إذا اكتشف أن مريضته عندها سرطان.. ولا يرقص من الفرح إذا اكتشف أن عندها زكامًا.. إنه حانوتى يضع الميت فى كيس دبلان كأنه يضع بضاعة عادية أو أردب قمح.

والطبيب لا يندمج فى حالاته، وإنما يقف على الباب يسجل ملاحظاته.. الحرارة، والنبض، والتنفس، والدم، والبول.. مجرد ملاحظات فكة يضعها فى رسم بيانى، ويستخرج منها تشخيصا وعلاجًا. يصنع كل هذا ببساطة للمريض وبدون انفعال، وبدون عاطفة. لأن العاطفة والانفعال والحزن والفرح من شأن المريض وليست من شأنه.. أن المريض فى حالة حياة.. وهو فى حالة فرجة على الحياة.

تذكرت هذه التجربة وأنا جالس مسترخ فى غرفة صديقى. وعينى فى عينه، ومخى فى الهواء.. معلق. يفكر.. وقلبى معلق معه، والاثنان معلقان من حبال أعصابى يرقصان رقصة خيالية مجنونة.

وكان صديقى يتكلم فى السياسة، وأنا أجيب عليه من وقت لآخر بكلمة: نعم، آه، أيوه، معلوم، مضبوط، فى محله!.

وأخيرًا سمعت صديقى يضحك ويقول وهو يهزنى:

– هو إيه يا جدع إنت اللى فى محله ده؟ أقولك نعلن الحرب على إنجلترا.. تقول فى محله؟ دنت باين عليك مش فى محلك خالص.

وأخذ يقهقه.. ثم قال:

– اسمع بقه.. إنت الطريقة بتاعتك فى الحب دى مش عاجبانى.

– طريقة إيه؟

طريقة أنك تنزل بدماغك وأعصابك وقلبك ودمك ولحمك فى كل غرام كده.. ما ينفعش..

– مش فاهم؟

– بالضبط.. إنت مش فاهم.. إنت مش فاهم إزاى تحب لغاية دلوقت؟.

– علمنى إزاى أحب طيب؟

– حب بحاجة وخلى حاجة.. حب بلسانك.. حب بعقلك.. حب بعينك.. خلى قلبك لنفسك ولنا.. ما تندمجش كده.. اتفرج.. بوس كأنك بتتفرج.. روح للميعاد كأنك رايح لمعرض.

– يعنى ابقى ناقد مش عاشق.

– مفيش طريقة غير كده وإلا البنات يشربوك ويحلوا بيك.

وهنا تذكرت التجربة التى مرت بى وأنا غارق فى الكتب الكبيرة من ألف صفحة.

إن صديقى يعتقد أن الصيانة الوحيدة للعاشق هى أن يتحول إلى طبيب يسجل ملاحظات عن تجارب القبل والأحضان ولا يندمج فيها. وصديقى على صواب. فوظيفة الملاحظ أكثر راحة من وظيفة الرجل الذى يعيش فى دوره، إنه لا يخسر ولا يكسب لأنه خارج الحلقة، إنه مجرد حكم، ولكن ثمن هذا النوع من الراحة فادح، فالملاحظ لا يعانى اللذة ولا الألم، إنه يتمتع بنوع بارد من المتعة، هو المعرفة، ويخسر فى مقابله لذات الانفعال.

إن صديقى يريد أن يجنبنى الألم بأن يجنبنى اللذة أيضًا، ويحولنى إلى مجرد محرر وصحفى حتى فى علاقاتى العاطفية.

ونظرت إلى صديقى طويلا..

ولأول مرة تأكدت أنه دكتور يحمل ميداليات التشريح والفسيولوجيا على صدره.. وأنا غلبان.. دكتور بالوراثة فقط..

وحينما كنا نسير فى الطريق أنا وصديقى.. كنت مازلت أفكر فى هذين الأسلوبين من الحياة: أسلوب الذى يعيش، وأسلوب الذى يتفرج.. والمكسب والخسارة الذى يتكلفه كل أسلوب، والاختيار الذى اختاره إذا كان لا بد من اختيار.

كان صديقى ما يزال يتكلم فى السياسة، وكنت ما أزال أجاوب عليه: بنعم.. وآه.. وأيوه.. ومضبوط.. وفى محله.. وأنا ولا هنا.. ولا فى محلى بالمرة..

وكان من الواضح أنى اخترت طريقى من زمن طويل.. وقبلت التكاليف..

وحينما بلغت منزلى.. وتمددت فى فراشى كنت ما أزال أفكر فى لذة الحب..

لقد اكتشفت أن الطريق إلى اللذة فى الحب هو الاندماج.. معايشة التجربة بخسائرها ومكاسبها.. والنبض معها فى كل نبضة.. والتأوه معها فى كل آهة..

ولكن بقى سؤال ظل يشغل بالى..

ما هى حقيقة الحب؟

إن الشعور بالحب والتلذذ به شىء.. وحقيقته شىء آخر.. وأنا أريد أن أعرف الحقيقة.. ولا يكفينى أن أشعر بها..

أريد أن أصل إلى معرفة واضحة لحقيقة الحب.. ما معنى كلمة حب بالضبط.. ومتى يكون الحب حقيقيًّا وهل هناك حب حقيقى؟..

وكانت هذه الأسئلة كبيرة على رأسى التى بدأت تدور دوار النوم.. فأطفأت المصباح..

* * *

الباب

كانت الساعة تدق الواحدة.. والليل عميق.. مفروش أمامى كلوحة غير محدودة.. أرسم فوقها ثم أمحو.. ثم أرسم.. وأعبث..

وكان فى يدى ذلك القفل السحرى.. أحاول أن أعثر على الأرقام التى تفتحه.

إنه قفل معلق على بوابة كل قلب يفتحه مفتاح واحد اسمه الحب..

وكنت أبحث هذه الليلة عن حقيقة الحب. تلك الحقيقة البسيطة التى تلتقطها حواسنا.. قبل أن تدركها عقولنا..

كنت أحاول فى هذه المرة أن أدرك الحب قبل أن يدركنى.

إن الحب فى مجتمعنا عاطفة معقدة.. لأن مجتمعنا نفسه معقد.. كل شىء فى مجتمعنا العصرى صناعى حتى الكلام

أسلوب صناعى للتعبير نصفه يضيع فى التكلف والمجاملات.. ونصفه الآخر يضيع فى الخوف والخجل.. وإذا تبقى شىء فهو يخرج من الفم وقد تحول إلى كذبة.. وحياتنا صناعية.. الطعام والشراب والمواصلات والمراسلات.. كل جزء من حياتنا تصنعه شركة أو يقوم على تركيبه مصنع.. والانسان فى داخل هذه الآلة الجهنمية فاقد لوعيه.. فاقد لنفسه.. فاقد لفطرته البيضاء النظيفة..

لقد شوهته المداخن بالهباب، ومسخه صراع الطبقات وأحرقه النهش والتكالب الفردى على الأرباح والمغانم..

والنتيجة أن علاقاتنا ليست طبيعية.. حبنا ليس طبيعيًّا.. وكراهيتنا ليست طبيعية.

هناك مسخ لكل عواطفنا.. مسخ يحدث فى داخلنا دون أن ندرى..

إن مانسميه حبًّا هو فى أغلبه شطارة.. فى أغلبه تاكتيك.. وتخطيط.. وتدبير وفهلوة ومعركة حامية بين أدمغة عكرة أنانية لا بين قلوب صافية..

الحب عملية تركيبية مفتعلة نؤلفها بمؤثرات خارجية بخلط الميول ومزجها وإهاجتها.. وليست عملية طبيعية تنشأ من داخلنا..

حتى لذة الجنس أصبحت بتأثير الشطارة مثل لذة العجلاتى الذى يركب البسكليتة ليقوم بحركات بهلوانية..

لقد خلت هى الأخرى من الانسجام الفطرى البسيط..

لا يمكن أن نسمى هذا الذى نمارسه فى الشوارع والحدائق ونوافذ البيوت والصالونات والتليفونات حبًّا..

إنه مباريات شطرنج.. واستعراض مواهب وعضلات..

إنه نوع غريب من التمتع.. يتمتع فيه كل فرد بنفسه.. بقوته.. وسطوته.. وقدراته.

وهو تمتع حقير أنانى ينتحل صفة الحب.. ويكذب.. ويكذب بصفاقة وتبجح..

والحب أحيانًا يعبر عن عقد نفسية فينا لا علاقة لها بمن نحبهم بالمرة..

قد يعبر عن مركب النقص.. أو مركب العظمة.. أو الخضوع.. أو السادية.. أو حالات من الشبق الجنسى المريض.. أو الهستيريا.. أو الهروب.

قد يختار الواحد منا امرأة قبيحة كسيحة لتكون موضوع حبه: لأنه يشعر أنه ناقص.

وقد يستخدم الواحد منا غرامياته معرضًا يعرض فيه

قدراته وتفوقه لأنه مصاب بهوس العظمة..

وقد يلجأ المحب إلى تعذيب حبيبته إذا كان ساديًا.. أو قد يخضع لها ويجد لذة فى تقبيل حذائها إذا كان ماسوشيًا.. وقد يكون حبه هستيريًا.. يتوقف فيه القلب.. ويشل الوجدان.. تمامًا مثل الهستيريا العضوية التى تصيب الأطراف بالشلل الوهمى.. فيقول الواحد منا:

– أنا أحب هذه المرأة.. أنا أعبدها.. أنا تعيس.. أنا عاجز عن التفكير فى أى شىء سواها..

والواقع أنه لا يحبها.. وأن أعماقه خالية من التفكير فيها بالمرة.. وإنما هو واهم..

وقد يكون حبنا هروبًا.. قد يكون هروبًا من المذاكرة.. أو من وطأة الحياة اليومية.. أو من مسئوليات البيت المرهقة.. أو هروبًا من أنفسنا..

وفى كل هذه الحالات لا يكون حبنا حبًا.. وإنما يكون عاطفة عليها هباب ثقيل من صراع الأفراد والطبقات.. وإفراز لعقد نفسية تنضج بالمر والعلقم والصديد..

إنك تشاهد حالات غريبة من الحب.. فى البيوت.. وفى أماكن العمل.. وفى المدارس.. أغرب من الروايات التى تعرضها السينما..

تشاهد المرأة التى تجرى خلف الرجل وتلهث وراءه تغريه وتتوسل إليه وتقبل يديه وتبكى وتستعطف.. وتصاب بالإغماء.. وتفقد وعيها على صدره.. وتظل تطارده حتى يستسلم.. ويصدق ويحبها.. ويتزوجها.. فماذا تكون النتيجة..

تبدأ فى تعذيبه.. وكيه.. ولسعه.. وكهربة أعصابه.. والمشى فوق مخه بالليل والنهار.. وهى فى نفس الوقت تمشى على أعصابها هى الأخرى وعلى قلبها.. وعلى عواطفها التى أرهقتها لمدة سنين فى البكاء خلفه.

ما السبب ؟..

ما السر فى سكبها الدموع على شىء لاتحس به ؟

ما السر فى جريها وراء شىء لا تحرص عليه ؟

إنها تبعثر حياتها ووقتها وشبابها وتخسر على طول الخط.

هل يكون هذا حبًا.. لا.. إنه جنون.. هوس.. إنها لوثة الحرية المخربة التى تصيب هذا الجيل..

إنه لا يعرف ماذا يفعل بنفسه.. لقد وجد يديه خاليتين من القيد الأول مرة فبدأ يهبش ويهبش.. بدون فكرة واضحة فى ذهنه..

* * *

وأنت تعثر على نوع آخر من الهوس.. على الرجل الصلب والمرأة الصلبة.. الرجل المتأبى المتعفف المتمنع الذى يغلى فى داخله ولا ينطق.. ولا يفصح عن شىء مما يعتمل بقلبه..

وقد تجد اثنين من هذا النوع يتحابان من الداخل دون أن يتبادلا كلمة أو نظرة صريحة أو لقاءً.. وإذا تكلما فهما يطرقان كل الموضوعات إلا الموضوع الذى يشغلها..

ومثل هذا الحب الذى يولد مخنوقًا.. يموت غريقًا فى النهاية.. غريق الواقع والضرورات وينتهى أمر الاثنين إلى زواج تقليدى عن طريق الخاطبة.. أو الأم أو الأب.. ويفشل الزواج كما فشل الحب.. وينتحر الكبرياء على مذبح الغباء والجهل..

هل يكون هذا حبًّا.. لا.. إنه مزيج من عدم الثقة والحب والخوف والتردد.. وميراث عتيق من التقاليد الميتة..

إنها عفة ضالة ملعونة مثل الحرية العابثة تماما.. ونهاية الاثنين الضياع فى سلة مهملات واحدة..

وهناك نوع ثالث يفشل فى الحب.. ويعى هذا الفشل أو لا يعيه.. فيهرب منه بالإغراق فى لذات جنسية حادة متعددة.. ولا يكف عن التهافت حتى يدركه التعب

والإغماء.. وعمر هذا النوع محدود بفترة الشباب القصيرة وبعمر الجمال الوردى.. فإذا بدأ الورد يذبل.. بدأت النهاية.. وهى دائمًا بشعة تستدر الشفقة..

وهكذا تتعاقب أشكال الحب فى مجتمعنا فى حلقات كحلقات الملاكمة.. وكباريهات آخر الليل..

وقد تجد بينها قبة شيخ وضع قلبه فى ضريح وأغلق عليه.. أو صومعة راهبة تصوم سبعة أيام كل أسبوع.. وقد تتعب قدماك فى البحث عن حب واحد حقيقى فلا تجده.. وإذا وجدته تجد عليه شوهة أو أثر حرق أو بقية من التهاب قديم..

وتمضى تتساءل بعد أن تكون قد كشفت السر.. وعرفت سر التشويه فى الداء الذى يكمن فى مجتمعنا وصراعه وفرديته.. تمضى تتساءل بعد هذا.. وما هو الحب الصحيح..

ما هى حقيقة الحب؟

وهذا يعود بى إلى القفل السحرى الذى أعبث به فى يدى باحثًا عن مفتاحه فى ظلمة الليل..

* * *

المفتاح

أين الحب الصحيح ؟..

إن علاقاتنا مشوهة.. لأن مجتمعنا يتصارع.. ويدخل كل اثنين فى سباق غير شريف غير متكافئ.

كل واحد شعاره.. أريد أن أفوز.. أريد أن أنتصر..

كل واحد شعاره.. أنا.. أنا.. أنا..

والنتيجة أن حبنا يمسخه الغرور.. والأنانية.. والكبرياء.. والتعاظم.. والأمراض النفسية.. والعقد.

حبنا مجرد علاقة ينفث كل منا فيها سمه وعسله وما أكثر السم.. وما أقل العسل.

كيف تفسر عواطف رجل لا تحركه إلا زوجات الآخرين أتكون هذه العواطف حباً.. لا يمكن إنها نوع من المبارزة تنتهى فورتها وحماسها بمجرد الانتصار.

إنه يريد أن يوضع فى محل المقارنة من رجل آخر وينتصر عليه.. والزوجة فى هذه اللعبة مجرد مادة لغروره..

والحب مسرة عقلية لا عاطفة فيها بالمرة..

وقد يظل الزوج يكره زوجته حتى يغازلها رجل آخر فيهتاج ويثور ويغلق عليها الأبواب والنوافذ ويلقى بالتليفون فى الشارع.. ويأخذ فى الالتفات إليها وإلى محاسنها.. ويأخذ فى مغازلتها..

أيكون هذا الحب الفجائى حباً ؟.. لا.. إنه مجرد كرامة.. إنه لا يحتمل أن يكون الفاشل فى معركة غزل..

أين الحب الصحيح إذن ؟.. أين هو تحت ركام هذه العقد والإنحرافات ؟ إنه موجود.. مثل الماء فى باطن الأرض يكفى أن تدق عليه ماسورة فينفجر فى ينبوع لا ينضب.

الحب إحساس جاهز فطرى فى داخلنا.. ينمو إذا واتته الظروف.. وهو ينمو دائماً من الداخل.. بدون مؤثرات بهلوانية من الخارج.. وبدون تمثيل وافتعال وكذب..

وهو يضيع ويفقد فى اللحظة التى يبدأ فيها الاثنان يصنعانه صنعاً كما تصنع الأدوية التركيب من أخلاط العواطف والتاكتيكات والمؤثرات..

إنه إحساس داخلى ينمو بطريقة تلقائية.. بدون قصد أو نية.. من التقاء اثنين.

ويبدأ بإحساس فطرى بالسرور والفرح والسعادة

والارتياح لمجرد التلاقى.. بدون الحاجة إلى كلام.. أو محاضرات.. ثم ينمو.

ويأخذ كل حبيب يعطى من ذات نفسه لحبيبه دون أن يدرى.. يأخذ فى التضحية دون أن يدرى إنه يضحى.. ويتبادل الاثنان اهتمامات كثيرة لا حصر لها.. فكل منهما يهتم بالآخر ويحمل همومه.. ويتعذب بعذاباته.. ويقلق لقلقه.. ويفرح لفرحه..

وكل منهما لا يطلب شيئًا من الآخر.. إنه يعطى ولا يطلب.. إنه يريد أن يرى حبيبه كما هو.. لا أكثر.

وهو لا يجد حاجة إلى الكذب والادعاء والتمثيل وهو يحس بالأمان إلى جواره.. يحس أنه سكن يأوى إليه ويستريح حيث الظل والماء والطعام والفراش المريح..

وهذا الإحساس بالسكن والاكتفاء هو الذى يعطيه الشعور بالأمان.. وبأنه فى غنى عن كل الناس.

وفى حب حقيقى.. توجد لذة من نوع آخر غير لذة الصداقة والانسجام العقلى.. لذة هى مزيج من السخونة والتخدير والتنميل.. ونوم مؤقت فى التفكير يبعث فى الجسد التلذذ.. والاسترخاء.. ويبعث فى القلب تفتحًا وإشراقًا.. ويجعل الكلام والضحك شبيهًا بالاحتضان.

وفى حب حقيقى عنيف يمكن أن تؤدى القبلة ما تؤديه لذة جنسية كاملة.. ويمكن أن تكون لمسة اليد شيئًا لذيذًا.. ممتعًا..

والحب الصحيح خال من الغرض.. وإنما تأتى الأغراض فيما بعد.. حينما يحس كل حبيب أنه عاجز عن الحياة بدون الآخر، وأنه فى حاجة إليه كل يوم وكل لحظة، ولا وسيلة إلى ذلك فى مجتمعنا إلا بالزواج..

ولهذا لا يكون الزواج هدفًا مقصودًا من البداية، وإنما يكون نتيجة يتورط فيها الاثنان لفرط ما هما فيه من الحب..

حتى الإخلاص لا يتم باتفاق وتعاقد.. وإنما يتم من تلقاء نفسه حينما يحس كل من الحبيبين أنه يمتلئ بالآخر، وأنه لا يجد مكانًا فى نفسه لحب ثان..

إنه يصحو فيكتشف أنه مخلص.. وأن ذهنه محصور فى شخص واحد.. يدور فى فلكه..

* * *

هذا هو الحب الصحيح لكن كيف نحصل عليه؟ لا توجد إلا وسيلة واحدة.. أن نتغير.. أن نصل إلى درجة من الطهارة الداخلية.. أن نغسل أنفسنا أولا بأول من

سموم ورواسب مجتمعنا، وهذا ممكن إلى حد كبير..

وهو غير ممكن فى الطبقات الفقيرة المطحونة التى تعيش تحت مستوى الحياة.. ولا فى الطبقات المتخمة البليدة التى تعيش فى حالة قمار وتبذل ومراهنات وحفلات وأكاذيب..

إن الطبقة الأولى فى حالة عدم وعى، والطبقة الثانية تعيش حياة تنكرية كرنفالية كل ما فيها مزيف حتى قطع الثياب.. حتى الانحناءات والمجاملات فرنسية.

إن الحرب الطاحنة بين الأفراد.. والحياة التى تشبه المزاد.. هى سر المسخ فى علاقات الحب والصداقة..

وليس معنى هذا أن نقف عاجزين عن الحب.. ففى الإمكان دائمًا أن نفعل شيئًا.

فى الإمكان تطويع السلوك لعلاقات المجتمع المريضة.. وفى الإمكان تعصيته..

فى إمكانك أن ترفض الرشوة والكذب والسرقة، وفى إمكانك أن تقاوم الغرور والأنانية، وأن تكتشف عيوبك النفسية وتعالجها.

فى إمكانك أن تقوّم سلوكك بالنقد.

وفى إمكانك أن تضيف سوستة عند كل مطب اجتماعى

تقع فيه فتتجنب الإصابة بجراح ورضوض فى أخلاقك.

فى إمكانك أن تتجنب الترخص والصغار فى سبيل متعة مؤقتة.. وانتصار تافه..

فى امكانك أن تفعل كل هذا وأكثر إذا بلغت النضج وأدركت القيم وأحسست بوزن كل قيمة ومكانها الطبيعى: وأنا شخصيًّا أعتقد أن الحب الصحيح موجود.. وممكن ويستحق أن نتعب من أجل الحصول عليه..

الطـريق

هل أكلمه فى التليفون.. هل أخرج معه..

هل أتركه يمسك يدى.. هل أذهب معه إلى السينما.. هل أتركه يقبلنى.. ويحتضنى.. ويتحسسنى هل أذهب معه إلى شقته.. وإلى أى حد أترك له نفسى؟

هذه هى الأسئلة التى تدور فى ذهن كل بنت حينما تحب رجلا.. ولا توجد قواعد عامة ولا حدود عامة متفق عليها بين البنات.. وإنما كل بنت فى الحقيقة تضع لها حدودًا خاصة حسب عقليتها وتربيتها وظروفها وحسب عقلية الرجل الذى تحبه..

إن كل البنات يهدفن من العلاقة إلى الزواج.

والبنت لا تتمنع على الرجل الذى تحبه من باب العفة والأدب، ولكن من باب الخوف أن تفقده كزوج وتفقد احترامه.. وتسقط فى عينيه ولا تعود بالنسبة له أكثر من عشيقة للاستهلاك الوقتى..

والرجل لا يفهم هذا وإنما هو يصر على أن يعتبر تمنع البنت عفة وأخلاقاً وحصانة.. وهذا يؤدى بالبنات إلى التمادى فى الكذب والتمثيل والادعاء..

والرجل فى العادة لا يجاهر بهذه الحقيقة وإنما يقول بلسانه عكس ما يعتقد بقلبه.. فيدعى أنه متحرر عصرى لا يتزوج إلا من بنت عقليتها متطورة، تراقصه وتدعوه على السينما وتزوره فى بيته وتبادله القبلات والعناق واللذة الحلال والحرام.. وحينما ترفض صاحبته أن تجاريه فى رغباته.. فإنه فى العادة ينعتها بأنها رجعية متأخرة غير صالحة لأن يشاركها حياته.. ولكنه فى الحقيقة يكون فى نفس الوقت يباركها فى قلبه.. ويقول لنفسه.. يالها من بنت محافظة شريفة..

ويبيت النية على الذهاب إلى أهلها وخطبتها.

ولكنه لا يستطيع أن يستمر فى الكذب.. ولا البنت تستطيع أن تستمر فى التمثيل.. وفى الوقت الذى يكون الاثنان بسبيلها إلى الزواج.. لا يستغنى كل منهما عن علاقة أخرى جانبية يتمتع فيها بالتعبير عن نفسه وعن رغباته الحقيقية.. فيتخذ لنفسه عشيقة يقضى معها فراغه ويثرثر إليها بمكنونات نفسه.. وتتخذ البنت لنفسها عشيقًا تلهو معه

على حريتها بدون خوف.. وفى الوقت الذى تتطور فيه الأكاذيب المتبادلة إلى زواج.. تكون العلاقات الجانبية بما فيها من صراحة وصدق تتطور إلى حب.. ويبدأ الصراع فى نفس كل من الاثنين.. وتنتهى حياتهما بزواج فاشل وحب فاشل فى نفس الوقت.. والسبب الأول والأخير هو الكذب.. الكذب الاجتماعى العام الذى نعيش فيه.. والغباء والجبن الذى يعيش فيه الرجل والمرأة على السواء..

وإذا بدأنا بالسؤال عن معنى الشرف.. فالشرف معناه أكبر من مجرد المعنى الجنسى.. وليست العفة وحدها هى الدافع الذى يجعل المرأة ترفض تقبيل الرجل الذى تحبه.. وإنما أحياناً الخوف من أن تفقد احترامه وتفقد نظرته إليها كزوجة.

إن المسألة فى حقيقتها مساومة على مصلحة تهدف المرأة إلى الوصول إليها بأى طريق.

وحب المرأة للرجل ليس دائماً دليلا على الابتذال.. وإنما الابتذال هو أن تهون عند المرأة عواطفها وجسمها، بدرجة أنها تصبح منحة سهلة لأى رجل وفى أى وقت ولمجرد التلذذ العارض..

الابتذال هو ترخص المرأة فى علاقاتها وشيوعها وخلو عواطفها من العمق والخصوصية التى تجعلها تختار رجلا بذاته لتحبه وتمنحه قلبها وتعيش فى وجوده..

والمرأة من هذا النوع المبتذل لا تحتاج إلى فراسة من الرجل ليعرفها.. أن لبسها وزينتها وخطوتها ومستوى تعاملها مع الرجال يدل عليها.. فهى نفسها لا تحس أنها شىء غال يقتصر نواله على الرجل الغالى.. وإنما هى تحس برخصها. ولا تجد مانعًا من أن تنالها أى يد.. لأنها تبحث عن اللحظة، ولا تبحث عن الرجل..

والنقطة الثانية المهمة أن الجنس بذاته لا يكفى لأن يوثق الحب بين اثنين، لأن الحب أعمق وأشمل من لحظات الجسد.. لأنه تعارف داخلى بين نفسين وبين لونين من الطباع والعادات والأخلاق والمشاعر..

ومحاولة البنت الوصول إلى أى زواج بأى ثمن اعتمادًا على أن العلاقة الجنسية كافية بذاتها للوصول إلى الحب.. فكرة خاطئة.. كما أن اعتقاد الرجل بأن التجربة الجنسية ضرورية للتعارف هو اعتقاد كاذب وخاطئ والعكس هو الصحيح فالتجربة الجنسية ما تلبث أن تؤدى إلى تشويه واتلاف لسلوكية الطرفين وبالتالى إلى استحالة الزواج أو فشله نتيجة سوء الظن وضياع الاحترام وافتقاد الثقة وامتداد الشك إلى الماضى كله ثم إلى المستقبل بطوله لو حدث الزواج.

والأسلم ألا تبيح الفتاة جسمها أبدًا إلا لزوج وللاثنين

الحرية فيما دون ذلك من كل ألوان الصحبة والتعارف.. ومن هنا كانت الشريعة فى تحريمها للمسافحة الجنسية أقرب إلى فهم الفطرة الإنسانية من هذه الموضات الأجنبية الوافدة التى تسللت إلى حياتنا من خلال السينما والتليفزيون.

وللأسف نحن نقلد وننسى أننا بيئة مختلفة وحضارة مختلفة وتقاليد مختلفة وقناعات مختلفة.

وطوق النجاة فى كل هذه المشكلة المعقدة.. هو الصدق.. والصراحة.. الصراحة بين المرأة نفسها.. والصراحة بين المرأة ورجلها.. الصراحة بأى ثمن حتى ولو كان الثمن هو فقدان الرجل.. وفقدان الحب وفقدان الأمل فى الزواج.

وعلى هذه الشجاعة تتوقف تربية هذا الجيل العاطفية من الرجال والنساء.. هذا الجيل من العشاق الفدائيين..

إن سقوط الكلفة وتكاشف الحبيبين بخفايا نفوسهما وتعارف الاثنين تعارفًا نفسانيًّا مكشوفًا.. ضرورى لنشوء الحب.. ولقيام العشرة الناجحة بعد الزواج.. وبغير هذا لا أمل فى حل هذه المشكلة المعقدة.. وبغير هذا سيظل الزواج والحب أكاذيب متبادلة..

محنة القلق

كرباج على العقل

إن الحرية لا يصنعها مرسوم يصدره برلمان..

إنها تصنع فى داخلنا.

إنها فى الطريقة التى نفكر بها.. والأسلوب الذى نشعر به.. والطريقة التى يتفتح بها قلبنا على إحساس جديد. ويصحو عقلنا على فكرة مبتدعة.. إن أخطر ما يتهدد حريتنا ليس السجن.. ولكن مشنقة فى داخلنا.. اسمها القلق..

إنك تحب.. وتقضى الليل تفكر فى المرأة التى تحبها.. وتصارع رغبة تكاد تقفز من فمك.. تقاوم لهفة تلهب قدميك لتجرى.. وتجرى خلفها.. ولكنك لا تفعل.. لأن هناك رياحًا أخرى تهب فى نفسك فى اتجاه آخر مضاد.. هى نواهى الأخلاق وأوامر الوالدين.. والخوف.. والخجل.. وعدم الثقة.. والميراث الشرقى العريض من الحياء والتقاليد..

وبين القوتين المتضادتين تقف معلقًا.. وقد شنقت حريتك وتدلت زرقاء لاهثة الأنفاس من حبل القلق..

لقد حاولت أن تلقى برغبة صادقة إلى الخارج.. فكانت النتيجة أن ألقى بها سجان فى قفص تحت الأرض.. فى بدروم مظلم داخل نفسك..

وهكذا كل شىء فى حياتنا.. لا يجد طريقه إلى خارج نفوسنا سهلا..

الخوف من الفشل يترصد كل رغبة ليخنقها قبل أن تولد..

وعقدة الذنب تجعل من كل عمل نعمله جريمة يؤاخذنا عليها الله والمجتمع والقوانين والآباء والأجداد.

والكبرياء والكرامة وعزة النفس وكل ما يحف بذواتنا يصطدم على الدوام بما يفعله الآخرون.. ويؤجج فينا الخوف.. ويدفعنا إلى الهروب والتقوقع فى نفوسنا خوفاً من الهزيمة والمهانة والمذلة..

والشك والتردد يمسك بالكلام فى حلوقنا.. فلا ننطقه وإنما نمضغه تحت أضراسنا.. دون أن نخرج له صوتًا.

والغيرة تضيق من آفاقنا وتحجب عنا مئات الفرص ولا تكشف من دنيانا إلا وجه غريمنا وهو يلوح لنا بالكسب

الرخيص الذى انتزعه منا.. فنقضى حياتنا فى مبارزة حقيرة على قطعة أرض أو امرأة ساقطة.. وتضيع أعمارنا بما فيها من إمكانيات..

وكل هذه القيود التى نرسف فيها من الداخل تعوقنا وتقف فى سبيلنا.. وتنتهى بنا إلى التوقف والشلل.. وإلى حال تشبه الإمساك.. لا نمارس فيها عملا ولا نستمتع برغبة، وتكون النتيجة أن نقف مكتوفين نتفرج على عمرنا الذى يضيع.. وننظر بعداء إلى كل لحظة تمضى.. نريد أن نقتلها..

إن اللحظات تصبح عبئًا.. والحياة تصبح كابوسًا.. والقلب يصبح جثة يفوح منها الملل والسأم والضجر.. والصيحة الوحيدة التى تبقى لنا هى الخلاص.. والخلاص من نفوسنا..

إن القلق حالة من التوتر تنتابنا حينما ننقسم فى داخلنا ونشهد رغباتنا وهى تقتتل وتتصارع..

إنها اللحظة الأليمة التى تتجلى فيها عداوتنا لأنفسنا.. وهى عداوة مفزعة.. لأن لا شىء فيها يمكن لمسه بالأصبع أو رؤيته رؤية العيان..

* * *

والقلق اليوم ليس كلمة تكتب على الورقة.. بل هى صرخة على كل وجه.. وحالة يعبر عنها المجتمع كله بكل مظاهره..

فكر فى العادات البسيطة التى تشاهدها كل يوم.. تدخين التبغ والسيجار والبيبة والجوزة.. وشرب المكيفات.. ولعب الطاولة والدومينو والكوتشينة والشطرنج.. ومضغ اللبان.. وقزقزة اللب. ورواية النكت القديمة المبتذلة.

إن كل هذه العادات لها معنى واحد.. هو قتل الوقت، إنها لعبة الصبر.. التى يتلهى بها الإنسان القلق عن النظر إلى داخل نفسه..

إن طرقعة القشاط والزهر.. وجنازة القتلى فى لعبة الشطرنج.. وحلقات الدخان التى يرسلها المدخن.. ما هى إلا جو مزيف.. وحياة مزيفة.. وانفعالات مزيفة.. يريد أن يحتمى بها من انفعالاته الحقيقية..

وأحيانًا يتحول قتل الوقت إلى قتل حقيقى.. فتتطور الكوتشينة إلى قمار والمكيفات إلى مخدرات.. والنكات المبتذلة إلى عادة سرية، وإسراف جنسى.

إنها القلق نفسه وقد ارتفع إلى مستوى عال من التوتر.. ماذا يكتب نصف الأطباء للمرضى؟

إنهم لا يكتبون أدوية.. ولكنهم يكتبون كرابيج للنفوس القلقة المرهقة أو منومات ومخدرات.. فنصف الروشتات عبارة عن كالسيوم وفيتامينات ومقويات ومنبهات للجنس.. وأقراص لليقظة.. وأقراص للشهية.. والنصف الآخر منومات ومسكنات ومهدئات.. والكلمة التى يرددها الطبيب بعد أن يفحص المريض ولا يجد عنده مرضًا.. هى.. أنت مصاب بكسل فى الكبد.. أو كسل فى الأمعاء.. أو هبوط عام.. أو تهيج عصبى..

والأمزجة الجاهزة التى ترد من الخارج قد تحولت الآن إلى أنواع مختلفة من المزة تعرض فيها الشركات فنها فى صناعة أخلاط من المذاق الشهى والعطور والألوان حتى أصبحت رفوف الأجزاخانات شبيهة برفوف البار.

والأدب هو الآخر أصبح صورة من التجربة القلقة بكل مضاعفاتها.. فمعظم الكتاب يكتبون للتسلية وليساعدوا القارئ على النسيان.. حتى على نسيان الكلام الذى يكتبونه.. فكل هدفهم هو قتل الوقت والصحف تطالعنا كل يوم بعناوين تصرخ بالدم والجنس وريبورتاجات من عشرات الأعمدة تروى قصص الانتحار وتصف تفاصيل التمزيق الذى حدث فى قميص النوم.. وعلبة الأقراص

التى تمنع الحمل التى وجدها المحقق تحت وسادة الضحية.. الخ.. الخ..

أما الأغانى فهى تذوب ذلا وعذابًا وبكاءً.. وتصرخ بالرغبة وتستجدى الإثارة والتهيج.

بتبكى ياعين على الغايبين.
علشان الشوق اللى فى الورد بحب الورد.

يا قلبى يا مجروح.
أنا والعذاب وهواك.
آه منك يا جارحنى.
قسوة حبايبى مغلبانى.
ظلموه.
عذبنى وأنا أجرى وراك.
أدور على اللى بايعنى.
أوف.. أوف. يا مصبرنى على بلواى.
يا ظالمنى يا هاجرنى.
يا طول عذابى.

إنها جرعة غير طبيعية من العذاب والتعاسة.

وفى أغان أخرى مثل.

من سحر عيونك ياه.. التى تنطقها صباح «من سحر عيونك ياح».

وفى منولوج مثل.. من فوق لتحت.. وتعالى يالله يالله تعالى يالله يالله.. فى غمضة عين.. تتحول الأغانى إلى كرابيج جنسية..

أما السينما فهى تساهم فى مأساة القلق.. بأفلام الرعب والفزع والجريمة..

أفلام داركولا وفرنكشتين.. وحلقات الشيطان.. وأفلام القتل واللصوصية والقرصنة.. و إخراج هتشكوك الذى قلب كل شىء إلى فزع وحول قصص الحب العادية إلى قصص فرنكشتينية يقف لها شعر الرأس..

واللقطات الطويلة للقبل التى تستغرق المدى الذى تستغرقه عملية جنسية بحركاتها ولهثاتها..

والمسرح هو الآخر تحول ثلاثة أرباعه إلى كباريه يعرض لوحاته عارية ونفوسًا عارية ونكات بذيئة.. والإذاعة راحت تهز أعصابنا كل ساعة بمسلسلة القط الأسود.. والشبح.. وليلة رهيبة..

إن الفن يعكس الهستيريا الاجتماعية ويشعلها ويؤكد حالات القلق التى نعانيها ويزيد عليها بحصار خارجى من

الصور والمؤثرات والمهيجات تطيح بالبقية الباقية من النفوس السليمة.. وتوقع بها هى الأخرى فى مشانق القلق.

إن المحروم يزداد شعورًا بالحرمان بعد ارتياد السينما، والجائع يزداد جوعًا.. والشكاك يزداد شكا.. والمتردد يزداد ترددًا.. والسليم النفس يحس أنه غريب غير طبيعى.

إن الفن يضع مزيدًا من الأثقال على المتناقضات فتزداد تناقضاً.. ويزداد التوتر بينها حدة.

والنتيجة أننا تعساء.. وأننا نفقد حريتنا.. ونفقد اختيارنا ونضيع فى الدوامة الداخلية فى نفوسنا، ونفقد الاتصال بالدنيا. ونعيش فى سجن حقيقى ونحن أحرار لم يصدر علينا حكم.

* * *

اذهب إلى مقهى واجلس وصفق طالبًا كوبًا من الشاى وراقب الوجوه حولك. إن ظاهرها ينبئ بالهدوء والتراخى والنوم.. ولكنه نوم كاذب فلو كان نومًا حقيقيًّا لنامه أصحابه فى منازلهم أو فى البلكون أو على فوتيل مريح.

ولكن هذه التجمعات من الآدميين يلوذ كل واحد منهم بالآخر ويتوكأ عليه ويبحث عن مكان تحت إبطه..

ولو لبثت قليلا من مكانك سوف يمر عليك بائع متجول

يدس فى يدك إعلانًا.. يقرؤه بصوت خافت..

«حبوب الأزواج.. مركبة من العنبر الحر والمانستر الخام وخلاصة الديوك وحليل التمساح وجملة أعشاب نباتية أخرى لا يمكن لأحد غيرنا الحصول عليها..»

«فائدة القرص الواحد تساوى مبلغ لا يقدر لأنه يغذى الدم ويمنع ارتخاء الأعصاب ويعطى الجسم قوة ونشاطًا لم يسبق لها مثيل..»

«جرب هذه الحبوب وسوف تشعر بلذة لا مزيد عليها».

وسوف يختفى الرجل لحظة ثم يعود وفى يده إعلان آخر عن كتاب اسمه اللذة الملعونة.. ويهمس فى أذنك:

«الثقافة الجنسية.. علاقة المرأة بالرجل.. خطيئة الحب الاستمتاع.. فتاة تفرط فى شرفها.. اعتراف مستهترة.. كيف تخضع حبيبتك.. الفاتنات العاريات.. الاستسلام الممتع فى العلاقات الزوجية.. لذة الرجل والمرأة.. الحيل الشيطانية مع المرأة.. الفتنة الطاغية.. الرغبة الجنسية.. العادة السرية.. الفتاة اللعوب.. اعترافات مومس.. كيف تصبح ذئبًا وتجعل امرأتك دجاجة».

«كتاب يعلمك الطرق التى تخضع بها المرأة جسدًا وروحًا».

إن الرجل يوزع كرابيج على الخيول المرهقة حولك:
إن أعجب نتيجة للإثارة الجنسية ابتداءً من الكتب والأقراص والأفلام والأغانى.. إنها لا تقوى الرجل على أداء مهمته الجنسية.. ولكن على العكس تؤدى إلى العجز والارتخاء فى سن مبكرة والسبب ليس المرض أو الضعف ولكن القلق..

إن الإثارة الدائمة تضع المسألة الجنسية فى مركز الاهتمام بالنسبة للرجل والمرأة.. وفرط الاهتمام يحول لحظة الجنس اللطيفة إلى لحظة امتحان رهيبة ترتجف أمامها أعصاب الرجل. وتكون النتيجة هى الخوف والشلل والارتخاء..

وهكذا تؤدى الكرابيج المنبهة إلى عكس نتائجها.. وتزيد المشكلة حدة.

ما هى الجذور الحقيقية للقلق فى مجتمعنا؟

وما هى الميكانيكية التى يحدث بها القلق فى داخل نفوسنا؟

وكيف نقضى عليه ونقتلعه من أساسه؟.

إن الرقابة على الفنون لا تجدى.. لأن الفنون تعكس حقيقة واقعة.. فالمجتمع متوتر فعلا.. نفوسنا مشدودة

الحبال.. وحياتنا ذات أنغام عالية..

إن المشكلة أعمق من وضع عسكرى على باب كل مؤلف..

إن معنى هذا أن نهرب من خوف باستخدام خوف آخر. معناها أن نرفع القلق إلى مستوى حكومى على حين أن المشكلة باقية فى الشارع وفى البيت.

لا مفر إذن من طرق البيت من بابه.

لا مفر من مهاجمة الداء فى وكره.

إن الصراع يجرى فى أعماق قلبنا وعلينا أن نفتح باب قلبنا على مصراعيه ونفتش فى أرجائه.. لنعرف كيف نحب وكيف نكره.. وكيف نثور.. وكيف نتألم.. وكيف نخاف.. وكيف نرقص على حبال هذه المشاعر كلها..

علينا أن نفك زنبرك دماغنا لنعرف كيف نملؤه ونفك تروس عواطفنا لنعرف كيف تتلاءم وكيف تركب بعضها على بعض..

علينا أن ننزل إلى غرفة الآلات لنعرف كيف تدور هذه الماكينة التى اسمها النفس.. وكيف تعطب.. وكيف يصيبها القلق وكيف يكون إصلاحها..

* * *

معركة فى سرداب مظلم

الأرض التى نعيش عليها واسعة والخير كثير والعمر طويل.. ومع ذلك فحياتنا سلسلة من المشاكل..

ما السبب؟

السبب أن كل هذا لا يعنينا..

إن ما يعنينا فقط هو رغبتنا.. ورغبتنا مثل النافذة الضيقة تطل دائمًا على ما يملكه الناس.. وتتشوف دائمًا إلى أشياء ليست فى حوزتنا.. ولا فى إمكاننا..

إن كل ما فى أيدينا يفقد سحره.. ولا يسيل لعابنا إلا على أشياء لا نملكها.

إن رغبتنا هى التى تصنع المشكلة وتخلق تعارضًا بين مانريده وبين ما هو موجود..

إنها هى التى تحفر الخندق الواسع بين الحلم والحقيقة.. هى التى تلح على الواقع طالبة تغييره بواقع آخر فى خيالنا..

وهى لا تفهم.. ولا تناقش.. وإنما تلح وتلح.. ولا

تتعب.. ولا تقبل التعقل..

والعقل.. أمام نيران الرغبة التى تحرقه. لا يجد مفرًا من مواجهة الواقع وتدبر الوسائل لتغييره وتكييفه ليصبح مرغوبًا وهو يحتاج لوقت.. والرغبة تصرخ وتريد كل شىء فى الحال.. والواقع جامد ولا يطاوع التغيير بسرعة والامكانيات محدودة والحرية محدودة.. والزمان والمكان والظروف والبيئة والناس قيود تضيف إلى كاهلنا أثقالا وتجعلنا قليلى الحيلة أمام رغباتنا.

إننا نصطدم فى كل لحظة بما نرغب وهذا هو سر الإشكال فى الحياة.

وهذا الصدام هو نواة القلق.. لأن معناه أن هناك شيئًا ما ينقصنا.. وهذا الشىء غير موجود.. وقد لا نستطيع إيجاده..

وهذا يضعنا أمام واحد من حلين.. إما أن نتنازل عن رغباتنا فنحرم من شىء نحبه.. وهذه نهاية مؤلمة، وإما أن نتنازل عن واقعنا فننتحر أو نجن.. وهذه نهاية أكثر إيلاماً..

ومن هنا ينبت الخوف والتوتر والتناقض.. والألم..

ومن هنا ينبع الإشكال.. ومن هنا تصبح حياتنا سلسلة من القضايا.. وسلسلة من المآزق..

إن مبررات القلق موجودة عند كل إنسان.. ومع ذلك لسنا كلنا قلقين..

ما السبب؟

السبب أن عقولنا لها طريقة سحرية تعالج بها هذا الصدام.. هذه الطريقة هى أن تتكيف وتتلاءم وتوفق بين رغباتنا وواقعنا.. وتقوم بالترضية وتهون من الخسائر بإقناعنا بأنها ضرورية ولابد منها. وبهذا تتساقط المشاكل الواحدة بعد الأخرى.

إن الرجل الفقير قد يحلم بالسكن فى فيلا واقتناء عربة والزواج من أميرة.. ولكنه مع هذا حينما يصطدم بالواقع ويحسب الحسبة كلها فى عقله لا يجد غضاضة فى التنازل عن هذه الطلبات ويكتفى بغرفة على السطح وجلباب واحد لا غيره.

لقد تكيف على حسب دخله..

ونحن حينما نرفع درجة حرارة بيوتنا فى الشتاء بأن نضع فيها مدفأة، وحينما نخفض درجة حرارة جسمنا فى الصيف بأن نعرق.. نتكيف نحن أيضًا لننسجم مع الواقع مثل هذا الرجل..

ولكن التكيف أحيانًا يتعطل..

هناك لذات حادة عميقة وآلام مرهقة يقف أمامها العقل مكتوف اليدين.. يتعطل جهازه كله..

الزوج الذى يحب زوجته ويعبدها ثم يفقدها فى لحظة بأن يأخذها الموت من بين ذراعيه.. يواجه رغبة مستحيلة فى بعثها..

إنه يحبها ويريدها.. وهى فى نفس الوقت ميتة..

إنها ميتة فى الحقيقة.. حية فى ذهنه وهو يحاول أن يتكيف مع الوضع الجديد بأن ينساها ويبدأ علاقات أخرى بنساء أخريات ويتزوج زواجًا ثانيًا.. ولكنه عاجز عن تجاوز محنته..

إن اللذات القديمة تلتصق به كأنها الغراء، فيتوقف عند وجه زوجته ويظل مسترخيًا فى أحضانها..

إنه يعيش فى التجارب الجديدة، ولكنه لا يمتزج بها..

إنه منفصل بوجدانه عن كل الأحداث التى تتلاحق حوله مثل نقطة الزيت تعوم فى الماء ولا تبتل..

لقد تعطل جهاز التكييف فى ذهنه فعجز عن قبول فكرة الموت.. ومضى يعيش فى المستحيل كأنه ممكن..

لقد سقطت زوجته فى براثن الموت، وسقط هو فى براثن

القلق.. وكلاهما أصبح ميتا على طريقته..

والسر فى تعطل جهاز التكييف هو تلك اللذة الحادة التى ألصقت عواطفه بالماضى.. كأنها صمغ.. فأفقدت عواطفه صفة الحرية والتجدد والتفاعل مع الحاضر.. فهو يتكلم ويتحرك فى آلية وروحه غائبة تحوم حول شبح، وهو يغذى هذا الشبح بتصوراته وانفعالاته فيكسوه باللحم ويبعث فيه النبض.. ولكن تصوراته مهما بلغت من العنف لا تبعث الميت حيًّا.. إنها على العكس تزيد حبه وتزيد عجزه فى نفس الوقت.. فيزداد توترًا وتمزقًا وتناقضًا.. ويتحول قلقه إلى ألم عضوى وإلى سلسلة من الأعراض المرضية.. مثل هذا الرجل قد يذهب إلى الطبيب يشكو الصداع المزمن والقىء وخفقان القلب والهبوط العام والأرق وضعف الشهية.. فيكشف عليه الطبيب.. ويضع السماعة على قلبه وصدره.. ولا يجد شيئاً.. فيقول له.. أنت موهوم.. وما تحس به لا أساس له من الصحة.. الطبيب مخطئ فى حكمه.. والأطباء يخطئون دائمًا حينما ينكرون المرض لأنه غير مصحوب بعرض جسمانى..

إن الجسم والنفس شىء واحد..

ونحن حينما نخاف ترتجف أجسادنا من الرأس إلى

القدم، وحينما نقلق نرتجف بنفس الطريقة.. ويرتجف هضمنا وتنفسنا ونبضنا وتفكيرنا.. ونقع ضحية أمراض غامضة لا تفسير لها فى عالم الميكروبات..

والدكتور جيلسبى يروى قصة مريضة جاءته بالتهاب مزمن فى ذراعها.. وكشف التحليل النفسى عن وجود صراع فى عواطفها سببه كراهيتها لأمها..

إن أمها تعاملها كخادمة وتستغلها إلى أحقر الحدود.. وهى تكرهها فى عقلها الباطن. وإن كانت ترفض هذه الفكرة فى عقلها الواعى لأنها متدينة.

وتكون النتيجة أن تشعر شعورًا غامضًا بالذنب وتحاول أن توقع على نفسها العقاب.. فتهرش فى ذراعها دون أن تدرى حتى تجرحه.. فإذا التأم أخذت تهرشه من جديد ويؤدى تكرار الهرش إلى التهاب مزمن لا ينفع فيه دواء.. لأن الأكلان ليس أكلانًا عضويًّا.. ولكنه أكلان نفسانى..

ومثل هذه المريضة لا تشفيها إلا عملية جراحية فى عواطفها تخلصها من الكراهية.. وتحقق لها نوعًا من التلاؤم والتكيف مع حياتها المنزلية..

إن أخطر ما فى القلق هو أنه مبارزة خفية غير منظورة

يتبارز فيها خصوم لا نراهم فى سرداب مظلم..

إننا نسمع صلصلة السلاح.. ونشعر بوخزات السيوف فى قلوبنا.. ولكننا لا نرى فى وضوح العواطف التى تتبارز فى داخلنا..

وقد يكون سبب القلق هو حرماننا من الحب فى فترة الطفولة.. حينما كنا نتسلق على صدور آبائنا فيلقون بنا بعيدًا فى ضيق وملل..

وقد يبدأ الصراع من تلك السن البعيدة فنقع فى محنة عاطفية بين حبنا لأنفسنا وحبنا للتدليل والحنان.. وبين حبنا لآبائنا.. ويؤدى بنا الصراع إلى العزلة والشعور بالنقص..

وقد نعيش بعد هذا وفى ذهننا فكرة واحدة متسلطة عليه.. هى الانتقام من المجتمع كله..

إن القلق إحساس مؤلم.. والنفس تتحايل لتهرب منه بأى وسيلة..

والجريمة والجنون والانتحار والانهيار العصبى سبل يائسة، تلجأ لها نفوسنا للتخلص من هذا الشد والجذب والتمزيق والتسلخ الذى يجرى فى داخلها..

حينما تشاهد طفلا يحطم لعبة ويفقأ عينها.. فهى غالبًا ليست لعبة فى نظره.. وهو لا يحطمها بهذا الغل لأنها لعبة..

وإنما لأنها رمز لشخص فى ذهنه.. ربما لأبيه الذى ضربه وحرمه من حضن أمه.. وربما لأخيه الذى تحبه العائلة وتفضله عليه..

إن قتل اللعبة هو الحل الوسط الذى لجأت إليه الانفعالات المحبوسة لتعبر عن نفسها..

ونحن مثل هذا الطفل نعانى مئات من الانفعالات المحبوسة لا نستطيع أن نعلنها لأن الواقع لا يحتملها.. وبعض هذه الانفعالات مجهولة بالنسبة لنا.. مدفونة تحت سطح الوعى.. لا نحس بها وإنما نشعر بصراعها فقط.. نحس بحرارتها ونرى دخانها ونشم شياطها وهى تكوى أعصابنا، ولكننا لا نراها ولا ندركها.. وهذه أخطر أنواع الانفعالات.. لأنها مكروبات غير مرئية..

إنها كالأقدار تهبط علينا من داخلنا فلا نستطيع ردها، وإنما كل ما نستطيعه هو أن نعانى ونتعذب ونتألم فقط..

إن سر القلق هو الإحساس بالاستحالة.. قد تكون الاستحالة سببها الخوف أو عدم الثقة أو عدم الفهم أو مركب النقص.. وقد يكون المستحيل ممكنًا فى الحقيقة..

ولكن هذا لا يهم.. فالمهم كيف ينظر الانسان القلق لمشكلته من داخل ظروفه وإمكانياته..

إنه يحس بالرغبة ويدرك استحالتها. وهو مع هذا لا يستطيع أن يسلم بالهزيمة.. ولا يستطيع فى نفس الوقت أن يفوز برغبته ويحققها.. إن كل ما يستطيعه هو أن يعيش فى حالة شد وجذب..

إنها حالة تشبه مسمار البرشام تدق صاحبها فى الحائط وتقيد حريته وتعطل ذهنه وتشل طاقاته وتربطه بلحظة حادة، ربما كانت لحظة ألم أو لحظة لذة أو لحظة حب أو لحظة كراهية.

وهو لا يستطيع الفكاك منها.. فإذا تجاوزها تجاوزها بجسده فقط.

فهو يذهب فى رحلة بالقطار من القاهرة إلى الشلال.. ويشاهد مئات القرى والبلاد ويعيش فى بانوراما متجددة. ولكن فكره يظل مع هذا واقفًا على محطة واحدة لا يبرحها.. هى مشكلته.

لقد فقد القدرة على التعامل بقلبه.. وأصبح يتعامل مع الناس بلسانه.. وفقدت حياته جوهريتها.. وأصبحت سطحية خالية من الحرارة والأصالة..

وهو على سبيل الهرب من هذا الشلل قد يخلق حالات من الشعور لا أصل لها.. قد يبكى على حب جديد لا يشعر

به.. وقد يضحك على نكتة لا يفهمها.. وقد يتورط فى زواج لا يرغبه.. وقد يلقى بنفسه فى مغامرة لا هدف لها البتة..

وهو بهذه الوسيلة يزيد مشكلته تعقيدًا لأنه يجعل الكذبة كذبتين.. ويصنع للسجن الذى ترسف فيه حريته سورًا آخر.. ويضرب حوله نطاقاً إضافيا من الأسلاك الشائكة.. ويمعن فى الابتعاد عن نفسه وعن حقيقته.

* * *

كيف يكون الخلاص من هذا التيه اللعين الذى يفوق ظلامه ظلام الباستيل كيف نحطم أسوار سجوننا ونخرج إلى الهواء الطلق..

كيف نتخلص من لذة آسرة لنذوق من جديد لذة ثانية بنفس العمق وبنفس الحرارة.

كيف نتخلص من حب فاشل لنعيش حبًا ناجحًا ونتمتع به ملء قلوبنا.

كيف نهزم الخوف والتردد ونكسب المرونة التى نتكيف بها مع الظروف المتغيرة حولنا.

كيف ندرك العوامل المجهولة التى تقرر مصائرنا.. ونكتشف عواطفنا من ينابيعها إلى مصبها.. ونقيم السد

العالى فى مجراها ونتحكم فى تيارها فلا يجرفنا..
وفى كلمة واحدة.. كيف نصبح سادة أنفسنا.

* * *

ثغرة فى الجدار

أتعرفون ماذا يفعل القلق بالإنسان.. إنه يحوله إلى مسحوق.. إلى برادة.. إلى نشارة.. إلى دقيق.. إنه يجعل من عقله مصاصة كمصاصة القصب. ويذرو عاطفته كما يذرو الفلاح القمح فيحيله إلى قش.. وتبن..

الإنسان القلق إنسان وحيد جدًّا فريد مغترب، لأنه مشغول دائمًا بجمع أشتات نفسه التى تذروها الهواجس.. مشغول بجمع عقله كلما تطاير فى مسحوق..

إنه مشغول بجمع أوصاله..

إنه كمن يسير فى ريح عاتية.. يصلح ثيابه التى يشلحها الهواء من على ساقيه من لحظة لأخرى.. والريح فى الحقيقة تهب عليه من داخله.. من قلبه فتشلح له عواطفه وأفكاره وتزعزع له اطمئنانه.. فينحنى بجماع نفسه على هذا الحطام ليبنيه من جديد.. ليعود فينهدم من جديد فيبنيه من جديد.. وهكذا..

وهو فى هذا الانشغال الدائم لا يعرف الهدوء.. ولا يعرف السكينة.. ولا يعرف الراحة.. ولا يعرف الأمان..

والضوضاء التى تصخب بداخله تحجب عنه الهمسات التى يتهامس بها العالم حوله وتسرقه من دنيا الواقع والأشياء الملموسة.. وتلقى به فى دنيا الهواجس والأحلام والخيالات والمخاوف فيظل يدور فى دوامتها كالقارب الذى يقع فى دوامة بحرية ويدور فيها ويدور وينفصل عن قافلته وفرقته..

وهذا سر وحدته وغربته وانفراده..

إنه وحيد ضائع فى عالم بلا معالم واضحة ملموسة.. عالم كل شىء فيه غائم مغلف بالضباب.. فهو يخاف. لا يعرف ماذا يخاف بالضبط.. يتمنى ولا يعرف ماذا يتمنى.. ينتظر ولا يتبين ماذا ينتظر..

وهو يخطئ كثيرًا ولكن خطاياه كخطايا الأطفال التعساء بدون قصد.. وبدون سوء نية.. لأنه لا يملك القدرة على أن ينوى ويخطط ويرسم ويعمل عملا منظماً فيه سبق عمد وترصد.. وإنما أفعاله مجرد قصاصات عواطف.. وفتافيت مشروعات لا تكتمل أبدًا.. فهو يشتاق فجأة للذهاب إلى السينما.. وفى طريقه إلى السينما يتوقف عند فاترينة عطور

ويتحلق بصره حول متفرجة جميلة تقف إلى جواره.. ويتعلق بها.. ويلاحقها.. ثم يصطدم به صديق قديم فى الطريق ليقول له فجأة.. إيه يا عم.. أنت مالك سرحان كده.. رايح على فين..

ويأخذه الصديق تحت ذراعه.. فيدخل فى ذراعه كفرخ حمام قليل الحيلة وينسى مشروع السينما ومشروع الفتنة التى لاحقها عند فاترينة العطور.. ويذهب مع صديقه إلى البيت فيجد برتيتة كوتشينة حامية فينضم إليها فى حماس.. ويخسر كل نقوده.. ويعود إلى البيت ماشيًا فيجد خاله يسكر فيسكر معه.. ثم يستلقى على الفراش منهكًا بعد يوم كامل بلا معنى.. يوم لا يدرى ماذا كان يريد فيه بالضبط.. .

إن حياته قصاصات عواطف.. فتافيت مشروعات.. لا تجد واحدة منها فرصة للنمو.. إنما تصاب كل واحدة بإجهاض سريع وتموت قبل الأوان لتلحق بها غيرها وغيرها.. وتصبح حياته مجرد مسحوق.. برادة.. نشارة حوادث.. والمنشار الذى يقطع فى هذا القماش الحيوى.. ويمزقه إلى هذه القصاصات.. هو القلق..

وأنت تستطيع أن ترى القلق فى العينين.. فى الحدقتين.. فى المياه السوداء العميقة التى تلمع بين الأهداب.. وهو يلمع

كما يلمع الجنون، ولكنه ليس بجنون.. إنه أهدأ من الجنون بكثير، لأن فيه إدراكًا..

والإنسان القلق يدرك أنه قلق.. ويحاول دائمًا أن يجمع أشتات نفسه.. أما المجنون.. فإن شخصيته تنفرط كما تنفرط حبات عقد لؤلؤ ولا يعود له قدرة على جمعها، لأنه يفقد الإدراك لحالته، ويفقد الصلة بنفسه وبالناس.. الكوبرى الذى يتأرجح عليه والذى يصله بعالم الناس وعالم الواقع ينكسر.. فيسقط فى هوة مظلمة بلا قرار.. ولا يعود يسمع أحدًا غير نفسه.. أما الإنسان القلق فإنه يتأرجح وتهتز أمامه المرئيات، ولكنه يظل على صلة بالناس.. يظل يشق الطريق بخطوة مرتعشة فى عالم ضبابى.. يتكلم.. ويسمع أطراف أحاديث.. ويفعل.. وينفعل.. ولكن فى مرض.

وهو قد يسرق وقد يقتل.. ولكنه يظل دائمًا مسكينًا.. يظل جانيًا ومجنيًا عليه..

الزوجة القلقة قد تخون زوجها مع ثلاثة رجال.. وبدون دوافع واضحة.. ثم تعود لتبكى.. وتقول أنا غلبانة.. أنا مظلومة.. وحينما تتعمق إحساساتها تجد أن إحساساتها مهوشة.. هى لا تعرف ماذا تريد بالضبط.. ولو أنها تزوجت

أحد عشاقها لخانته مع زوجها.. لأن عنصر الاختيار مفقود.. إنها لا تفعل لأن هناك أسبابًا كافية تبرر الفعل.. ولكن لأنها ضائعة مهوشة.. وجودها ممل ثقيل بلا معنى.. حياتها مفكوكة.. ومفروطة إلى مجرد لحظات فرط.. قصاصات.. وأكثر ما تستطيع أن تمنحه لعشيقها قصاصة حب.. لحظة جنس.. لأنها لا تملك أكثر من هذا.. قلبها فارغ مهوش.. ومشاعرها مختلطة..

وسر القلق روحانى.

السبب الذى يلقى بها فى هوة القلق أنها تفتقد معنى لحياتها.. لا تجد لحياتها معنى يبررها. ولهذا لا تدين بالولاء لشىء.. وتفتقد الهدف والغاية والمبدأ.. وكل هذه المعنويات ليست مجرد كلمات فارغة.. إنها الهيكل الذى تنبنى عليه الشخصية.. والخيط الذى تنضم فيه حباتها لتؤلف عقدًا مفهومًا.. وبدون المعنويات تصبح الشخصية رخوة هلامية مختلطة قلقة مفكوكة بلا شكل.. وتصبح الأفعال خالية من الترابط والوضوح والاقتناع.

والفقر ليس سببًا كافيًا للقلق.. والفشل ليس سببًا كافيًا للقلق.. إن الإيمان يمكن أن يغطى كل هذه الثغرات.. ويجعلها حلقات ذات معنى فى قصة كفاح لذيذ..

إن سر القلق.. هو أننا نعيش بلا دين.. بلا إيمان.. وأن ديانتنا من الظاهر فقط.. كلمات على الألسن فى المناسبات.. وصلوات تؤدى بحكم العادة..

إن القلق مرض روحانى أصيل.. إن سببه هو افتقاد المعنى فى الحياة..

إن التفوق العلمى والمادى لم يصاحبه تفوق روحى..

إننا أصبحنا عمالقة فى أدواتنا وآلاتنا.. سيارة.. وطيارة.. وصاروخ.. وقمر صناعى.. ولكننا ظللنا أقزامًا فى حكمتنا.

عندنا مادة.. وليس عندنا تصرف..

وعندنا عضلات.. وليس عندنا خلق..

عندنا علم.. وليس عندنا حب..

حضارتنا فيها نقص خطير فى الغدد.. فى الهرمونات.. فى المعنويات.. وكلمة المعنويات تظل دائمًا كلمة غير مفهومة بالنسبة للإنسان القلق..

إنه يعانى ويتعذب.. ولكنه يتمسح بأسباب عادية يظن أنها سبب تعاسته.. الزوجة عندها فريجيدير وغسالة وسخان وبوتوجاز وعربة واقفة على الباب، وزوج طيب ومصروف تشترى منه كل يوم ما تحتاجه وما لا تحتاجه.. ونصف

ما تشتريه مركون فى الدولاب لا تلبسه.. ومع هذا فهى تخون زوجها وتصرخ فى ضجر وتبرم قائلة:

أنا مش طايقة العيشة الضيقة دى.. إيه الفقر ده..

وهناك فقر فعلا.. ولكنه ليس فقرًا فى مادياتها كما تظن.. وإنما فقرًا فى معنوياتها.

وحينما تقول لها هذا.. تسألك فى براءة وحيرة.. يعنى إيه كلمة معنويات دى..؟

وهى صادقة فى سؤالها.. لأن المعنويات شىء مفقود فى حياتها.. شىء لا تعرفه.. ولا تفهمه..

ولكن هذا الشىء المفقود شىء خطير.. شىء مثل الهرمونات فى الدم.. فقده يقتل..

الهرمونات منظمات كيماوية للجسم.. والمعنويات بالمثل منظمات روحية للأفكار والعواطف والأهداف..

إنها مثل الهيكل العظمى للنفسية والشخصية.. هى التى تجعل لها شكلا واتجاهًا.. وبدونها تصبح الشخصية متهافتة مشتتة بلا اتجاه.. تصبح قلقًا وسخطًا وضجراً وتبرماً..

والقلق حقيقة مرعبة هذه الأيام.. ليس بين شبابنا وحدهم.. ولكن بين شباب العالم كله.

القلق محنة عالمية سببها أن هناك عجزًا فى المعنويات.

التفوق العلمى المادى فى السنوات الأخيرة، لم يجد له غطاء من التفوق الروحى، فتحول الانسان إلى مارد بلا قلب.. واختلت شخصيته.

وطوق النجاة هو ظهور حقيقة روحية تسد حاجة عقلنا العلمى المتفوق.. وتعطى لقوانا النامية كفايتها من الفهم..

البحث عن إيمان.. هذا هو الحل..

ابحث عن إيمانك إذا كنت قلقا.. وحينما ستجد إيمانك ستجد نفسك..

* * *

وتبقى بعد هذا.. القلعة الصغرى التى ينمو فى داخلها القلق.. هذه القلعة هى النفس.. هى الرغبة المسعورة.. والتطلع المستحيل..

إن الانسان القلق يعانى رغبة لا يستطيع تحقيقها.. وهو لا يملك التكيف مع واقعه ولا يملك فهم هذا الواقع، ولا تبين إمكانياته: ولا يملك حتى فهم نفسه..

إنه يريد.. ولكنه لا يفهم ماذا يريد بالضبط..

وهو يغذى هذا النقص فى وعيه بالتصورات.. فإذا كانت

مشكلته هى امرأة يحبها.. فإنه يضع صورتها فى إطار من الزخارف والخيالات.. وقد يرسم لها صورة جديدة من إبداعه.. فيعطى لمحاسنها لونًا باهرًا ويخفى عيوبها فى مساحة من الظل..

وهو يتذكر كل كلمة قالتها.. ويعطى لكل همسة معنى لم تقصده ولم يدر بخلدها بالمرة..

وتكون نتيجة هذه التصورات أن لذاته تكتسب أعماقًا غير حقيقية.. وتبلغ درجة من الكمال الوهمى تغريه بالالتصاق بها.. فيتجمد عندها.. ويتحول بالتدريج إلى الإنسان الذى وصفناه فى المقال السابق.. الإنسان المدقوق فى الحائط بمسمار برشام.. مدقوق من قلبه.. الإنسان الذى يتعامل مع الناس بلسانه وجسده فقط.. ويعيش بسطح وجوده.. ويفقد جوهريته وأصالته.

ما معنى هذا؟

إن معناه أن إرادة الانسان القلق تساهم فى خلق مشكلته..

إنه معذب.. ولكن جزءًا من عذابه إرادى.. هو الذى جلبه لنفسه بإرادته.. وبتصوراته..

وهنا تبدو الثغرة الحقيقية فى جدار السجن..

إن السجين يشكو ولكن مفتاح السجن فى جيبه.. هو الذى أدخل نفسه وأغلق خلفه الباب.. فى إمكانه أن يتحرر..

فى إمكانه أن يقطع حلقة التصورات المفرغة التى يدور فيها وأن يمحو الألوان والظلال من مشكلته ويتركها عارية على الخطوط.. وبهذا يذيب الغراء الذى يلصقها بوجدانه..

ليس هذا فقط.. وإنما هو يستطيع أن يقفز من حيز الفكر إلى حيز الفعل.. ويقوم بخطوة إيجابية.. وينزل ميدان تجربة جديدة..

إننا لا نتعلم السباحة طالما أننا واقفون على الشاطئ.. نفكر فى برودة الماء وعمق البحر.. ونقدم رجلا ونؤخر أخرى.

لن نتعلم إلا بقفزة واحدة تلقينا فى وسط الماء، وسوف نحس ببرودة الماء تلسعنا ككرباج فى البداية. لكننا ما نلبث حتى نتعود ويتحول الشعور بالبرد إلى شعور بالدفء.. والشعور بالتهيب إلى شعور بالاقدام.. ونبدأ فى تحريك أطرافنا.. وهكذا نتعلم.. ثم نسبح.. ونقف.. ونمشى.. فى الماء كأنه أرض مرصوفة..

إن الانسان القلق فى حاجة إلى ثلاث مراحل ليفلت من قلقه..

أن يفهم نفسه ويكتشف قدراته ويزيح النقاب عن رغبته الحقيقية ومداها ومنبعها ويفهم واقعه وإمكانياته.

أن يقطع حبل التصورات والخيالات التى تغذى قلقه.. وبهذا يخلع نفسه من الحائط ويضع حدًّا لجموده الداخلى.

أن يلقى بنفسه فى شعور جديد وتجربة جديدة بدون تحفظ وبدون خوف.. لا يهتم.. أهى تجربة حلوة أم مرة.. جميلة أم كريهة.. لأن المهم هو لذة الاكتشاف.

وبهذا يستعيد الانسان القلق قدرته على التكيف ويشعر أنه قد استرد نفسه.. ووضع يده على عصا القيادة من جديد.

وأسوأ الحلول التى يلجأ إليها إنسان قلق هى الهروب..

إن المقاهى وإدمان التدخين وشرب الجوزة ولعب النرد ولعب القمار والمخدرات.. والعادة السرية.. كلها معناها.. ورقة غياب.. يتركها الانسان القلق على مكتبه ويذهب بدون أن يصطحب نفسه إلى مكان ما ثم يعود دون أن يكون قد أحس بشىء حقيقى..

إن فترة الهرب فترة ساقطة فى حساب العمر..

والعلاج الحقيقى لا يكون إلا بالمواجهة.

* * *

إن القرص الواقى من القلق هو ساعة نقضيها فى الفراش قبل أن ننام.. نفكر.. ونفكر.. فيما فعلناه ونزنه بميزان موضوعى هادئ.

إن هذه الساعة هى بمثابة تطعيم ضرورى للذهن ضد القلق لأنها سوف تمنحنا معرفة بأنفسنا..

وإذا عرفنا أنفسنا تمكنا من قيادتها.. وتمكنا من إصلاحها حينما تعطب..

هذه المعرفة للنفس أولا بأول بالإضافة إلى وجود هدف كبير فى الحياة يمتص الأهداف الصغرى.. وإيمان عميق وتعلق كبير تتضاءل أمامه التعلقات الصغيرة، هو السبيل الحقيقى للوقاية من القلق.

إن الجندى فى ساحة القتال ينسى همومه الصغيرة لأن هناك هدفاً كبيرًا قد امتصها..

إن حب الأرض والوطن والولاء للغايات العظيمة قد أذاب ما فى نفس الجندى من تعلقات، واستولى على تلك

النفس بإطلاقها ووحدها فى اتجاه واحد وأزال مابها من تناقضات.

وبالمثل حب الصوفى لله يخلصه من حبه للدنيا ومن حبه للمرأة.

وهكذا تكون نهاية القلق.. بمعرفة النفس..

اعرف نفسك..

هذه خطوة النجاة الأولى..

فإذا عرفت نفسك قادتك نفسك إلى خالقها..

وقديما قالوا:

اعرف نفسك تعرف ربك.

وبالإيمان تصل النفس إلى بر السكينة وتصبح أكبر الأحداث فى حياتها مجرد ارتعاشات على سطح بحر هادئ ماتلبث أن تنداح وتسكن لتترك البحر شديد الهدوء شديد الصفاء.

* * *

الوهم

الأوهام حولـك فى كل مكـان..
والحل الوحيد أمامـك هو أن تكـون
سيـد هذه الأوهـام - وأن تصنعهـا
بيدك..

دنيانا غريبة.. وحياتنا مصنوعة من الوهم.

الواقع حولنا جامد ميت عديم المعنى.. ونحن الذين نعطيه المعنى والقيمة والأهمية.. نجعله ينبض بالحياة..

الكراسى والأشجار والحيوانات والنساء والفواكه تظل أشياء لا معنى لها حتى نحبها ونشتهيها ونطلبها ونجرى وراءها.. فتنبض بالأهمية والحياة..

المرأة تظل كمية مهملة.. تظل غير موجودة فى حياتنا تمامًا.. حتى نحبها فتوجد.. وتصبح شيئًا هامًّا.. يسعدنا ويشقينا..

نحن الذين نعطيها القيمة والأهمية ثم نحبها.. وفى الحقيقة نحب الوهم الذى خلقناه منها ولا نحبها فى ذاتها..

ونحن الذين نسبغ الخطر على الأشياء ثم نخاف منها ونجزع.. وفى الحقيقة نفزع من الخطورة التى أسبغناها

عليها.. وليس منها فى ذاتها لا شىء له قيمة فى ذاته.. كل شىء زائل، ونحن الذين نعطيه قيمته وأهميته.. ثم نتألم ونتعذب من أجل هذه الأهمية المزعومة.

نفنى فى الحب.. والأشخـــاص الـــذين نفنى فيهم.. زائلون فانون بطبيعتهم.. وهذا أمر مضحك.. ولكنه لا يضحكنا.. وإنما يبكينا ويعذبنا. لأن غرضنا يلتبس علينا.. فنحب الأشخاص.. على حين أننا فى الحقيقة نحب المعانى التى تصورناها فى هؤلاء الأشخاص.

ونحن مساكين.. لأننا لا نجد فى الحياة شيئًا خالصًا صافيًا.. لا نجد معانى خالصة صافية.. المعانى دائمًا مـزروعة فى أشخاص.. والأوهام مزروعة فى الحقائق.. والتصور مـزروع فى الواقع..

ونحن أنفسنا مزروعون فى أجسادنا..

نحن نسيج غريب من الوهم والحقيقة.. من الواقع والتصور.. من الوجود والفناء..

نحن الوهم الأكبر.. والعذاب الأكبر..

والفنان أكثرنا عذابًا.. لأن الأوهام مادة حياته..

والخيالات.. والأفكار.. والأنغام.. هى متعته ومهنته ولقمته.. فهو يأكل من أعصابه وأحلامه..

الراحة تقتله.. والاستقرار يقتله.. والواقع يقتله.. والاطمئنان يقتله.. والفضيلة بشكلها المألوف تقتله..

الفضيلة عنده تنمو من الشك.. وكل القيم والأفكار والمبادئ تنمو من الشك.. وتتطور وتأخذ أشكالا جديدة باستمرار..

وعليه دائمًا أن يسبح فى دوامة الشك.. ليبتكر ويجدد ويخلق.. ويرتفع فوق المألوف.

لى صديق فنان مرهف الأعصاب.. يعيش دائمًا فى شك.. وقلق.. وأرق.. وملل وخوف.. وحب.. عيناه زائغتان يسكنهما فزع غريب هادئ. وقلبه تعتصره هواجس خفية.. وحياته صراع لا ينتهى مع هذه الأشباح التى لا ذيل لها ولا رأس.. يحاول أن يتغلب عليها بالشاى والقهوة والسجائر والخمر والأقراص المسكنة.. والإغراق فى الكتب والإغراق فى السهرات.. والإغراق فى الناس.. والضحك.. والصياح.

وأحياناً ينجح ويفلت من هذا الحصار الداخلى الغريب ويخرج إلى الدنيا.. يلهو ويقفز ويرقص كالطفل..

وأحيانا يفشل فتجره الأشباح إلى ظلامها ويزوغ بصره

ويبدو كالغريق الذى يغوص شيئًا فشيئًا فى لجة عميقة..

مشكلته أنه لا ينام.. يقضى ليالى بطولها مؤرقًا لا يذوق النوم.. يصرخ ويتوسل أن أعطيه أقراصًا منومة..

ومن عادتى أن أعطيه أقراصاً من النشا.. أقول له إنها أقراص شديدة المفعول.. وهى نفس الطريقة التى يستعملونها فى عيادات الأمراض النفسية..

ويبتلع الأقراص المزيفة.. وبعد دقائق تثقل أجفانه.. وبعد دقائق أخرى يزحف النوم إلى عينيه.. ويروح فى سبات عميق.. ليس بمفعول الأقراص.. ولكن بمفعول الوهم..

إن مرضه وهم.. ودواءه وهم.. وهو نفسه وهم.. وكلنا أوهام.. أوهام.. تعسه.. كبيرة.

❊ ❊ ❊

السقوط

إن أشرف ما فينا يعتقل فى اللحظة التى نتحول فيها إلى ناس ناجحين عمليين أولاد سوق، لأن مطامعنا الصغيرة الرخيصة تعتقل مطامعنا العالية الرفيعة..

نجاحنا يبتذلنا.. يعتقلنا.. ينتهك حرماتنا.. يضيع من أيدينا حياتنا الحقة..

مقياس الحياة ليس النجاح..

إنك قد تحصل على شهادة وتفوز بوظيفة كبيرة ولقب ونيشان وثروة وتتزوج وتنجب أولادًا وبنات.. ومع ذلك لا تكون قد عشت.. لأن الحياة ليست تعيينات.. ولكنها انفعالات.. وقد تعيش كل هذا العمر دون أن يهزك انفعال

حاد ويفتح عينيك قلق مبهم وتصهرك لذة حامية..

والحياة تبدأ دائمًا من هذه اللحظة الباهرة التى تفيق فيها على دهشة على حب وأمل وخوف ولذة وقلق.. أما الأيام التى تعيشها فى هوادة ورفق وتنتقل فيها من لحظة مألوفة إلى لحظة مألوفة.. ومن واجب مدرسى إلى تكليف وظيفى.. إلى واجب زوجى.. فهى عادة تسقط من حسابك ولا تحس بها.. وتكون النتيجة أن تفيق فجأة بعد خمسين سنة وتتلفت حولك فى وجوه أطفالك وتعجب.. وتتساءل.. متى وأين وكيف أنجبتهم..

إن عمرك قد مر بك دون أن تشعر به.. مر بك خلسة.. كما يمر شريط السينما وأنت نائم..

إن عمرك الحقيقى ليس تعاقب سنوات.. ولا تعاقب حوادث.. ولا عبرة فيه بالتوفيق والنجاح والثروة وبلوغ الأمانى أبدًا.. فكثيرًا ما يكون بلوغ الأمانى على البارد.. يواتيك النجاح فى المدرسة كالمعتاد.. وتواتيك العروسة عن طريق الخاطبة.. وتواتيك الدرجة فى دورك. ويواتيك النسل الوفير، تمامًا كما تواتى الشجرة ثمارها فى كل ربيع..

مثل هذه الحياة ليست حياة.. إنما هى نوع من العادة الشهرية التى تواتى النساء.. مجرد أعراض كالتنفس

والنبض ودورة الدم تواتى رجلا غفلانا يمشى فى نومه.. تغيرات تطرأ من الظاهر كما يطرأ الصدأ على الحديد.. كما يحدث التحات والتعرية.. للصخور والجبال.

ولكن الحياة شىء آخر تمامًا..

الحياة اعتمال وانفعال وحركة تجيش فى الداخل.. تفتح العينين على حقائق مدهشة وتنبه الأعصاب إلى إحساسات غاية فى اللذة.. وغاية فى الألم.. وتنبه العقل إلى أسئلة غاية فى الغموض.. وتنبه الوجدان إلى عواطف مؤرقة مقلقة..

الحياة يقيسها ترمومتر مغروس فى القلب.. لا يقيسها ترمومتر فى الجيب، أو ترمومتر مغروس فى الظروف..

الحياة شىء آخر تماما غير التوفيق والنجاح والاستقرار والراحة والأمان.. كل هذه الأشياء كلام فارغ ليست من الحياة فى شىء..

الأمان والراحة والاستقرار، أحلام الجبناء الذين يعيشون فى استرخاء وينامون على الكراسى والمناصب كما ينام الذباب.

أما الحياة الحقيقية، فهى نعمة لا يفوز بها إلا الشجاع الجسور الذى يعيش فى مجازفات دائمة، ويلقى بنفسه كل

يوم إلى غد مجهول.. ويقتحم أراضى جديدة فى العمل والفكر والفن والعاطفة.

ولحظة من هذه الحياة تساوى عمرًا كاملا.. لأنها تحفل بمشاعر تضيق بها أعمار الكثيرين..

والحياة كالنهر تقاس بالعرض.. بكمية الانفعالات التى تجيش فيها من شاطئ اللذة إلى شاطئ الألم.. وتقاس بالطول بمدى ما يتسع مجراها من ينبوعها إلى مصبها..

أذكر أحيانًا فى بعض اللحظات أنى كنت أشعر أن عمرى ألف سنة من فرط ما يجثم على قلبى من هم وانفعال..

كنت فى هذه اللحظات أحس بالأجيال التى مضت.. وأشعر بوطأة ميراثها فى عقلى وأعصابى، فينحنى عقلى من الهم كعقل رجل عجوز وكنت أشعر بالمشقة.. ولكنى كنت أيضًا أشعر باللذة.. لذة المصارع الذى يحيط بالحلبة كلها بذراعيه..

نعم.. لقد أصبحت أشك كثيرًا فى هذا الشىء الذى يسمونه النجاح..

إن أشرف وأجمل وأنبل مافينا يعتقل فى اللحظة التى نتحول فيها إلى ناس ناجحين عمليين أولاد سوق، لأن مطامعنا الصغيرة الرخيصة تعتقل مطامعنا العالية الرفيعة.

بحكم الوصول لا بد لنا من المرونة والتكيف حتى لا نصطدم ونشتبك، لا بد لنا من المداهنة والمجاملة والتملق واكتساب الناس بالكذب عليهم.. لا بد لنا من تجنب الصدق لأن الصدق يجرح.. وتجنب الصراحة لأن الصراحة تصدم.. لا بد أن ننافق الذين نكرههم لأن لهم فائدة.. ونتجنب الذين نحبهم لأنهم يعطلوننا فى الطريق.. لا بد أن نكتم فى نفوسنا أشياء لأنه لا يحسن قولها.. ونعلن أشياء لا نشعر بها لمجرد أن وقعها ظريف على الآذان.. لا بد من الانحناء قليلا لندخل من الأبواب الضيقة الخلفية.. لا بد أن نتنازل عن حريتنا.. عن نفوسنا..

إن نجاحنا يبتذلنا.. يعتقلنا.. ينتهك حرماتنا.. يضيع من أيدينا حياتنا الحقة.. حياة البحث عن العدالة والجمال والحرية والحقيقة.. حياة الحنين لكل ما هو صادق وأصيل..

وفى الوقت الذى نظن فيه أننا ننجح ونحقق أحلامنا.. إذا بنا فى الحقيقة نفقد هذه الأحلام ونفقد أنفسنا..

وفى مقابل ماذا..

فى مقابل واقع نجاحنا..

وما هو النسيج الفعلى لهذا الواقع.. لاشىء سوى إشباع حوافز الطعام والجنس وحب السيطرة.

لا روح..

إن روحنا تصبح مشغولة بتبرير هذه الدوافع والبحث عن غطاء أخلاقى لها.. وضمان منطقى لاستمرارها..

وهى دوافع لا ينفع فيها غطاء.. ولا منطق.. إنها مكاسب مفلسة من البداية..

فى الوقت الذى يدفعنا الحافز الجنسى إلى الاتحاد بالجنس الآخر، فإن هذا الاتحاد لا يحدث أبدًا. إنما هى لحظات ثم يفيق كل منا على الانفصال الحاد ولا ينال كل واحد من الآخر إلا مجرد الاحتكاك بسطح وجوده.

الجنس ينتهى بالخيبة..

والإفراط فى الطعام ينتهى بالتخمة والخمول.

والنوم فى كراسى النفوذ ينتهى باليقظة الفاجعة، وإذا بالنفوذ قد انتهى وزال..

ثم لا شىء..

إن واقع النجاح.. هو فى الحقيقة واقع فارغ تمامًا..

ولهذا أشعر أحيانًا أن الأحلام أكثر واقعية من الواقع..

وأن لفشل فيه أحياناً من ثراء العقل والنفس أكثر مما فى واقع رجل ناجح من أصحاب الملايين.

إن النجاح حينما يكون ثمنه الحرية.. يكون سقوطًا

فلا شىء يساوى الحرية.. ولا شىء يعلو على الحرية فى سلم القيم..

لا يوجد شىء أضحى بحريتى من أجله.. لا أضحى بحريتى من أجل الوصول ولا من أجل النجاح.. ولا من أجل اللقمة.. ولا من أجل الأمان.. وإنما أضحى بها من أجل أن أكسب حرية أكثر أصالة.

كل شىء فى الوجود يرخص من أجل الحرية.

الثورات السياسية حدثت لأن كلا منها كانت وعدًا بالحرية.. والدماء أريقت باسم الحرية..

وكل ثورة كانت تحطم الثورة التى سبقتها فى تواتر مستمر طوال التاريخ، لأن كل نظام كان يفشل فى استيعاب قوة الروح الحر المبدع الخلاق..

من أجل الحرية أضحى بالحياة.. بالحب.. بل إن الحب حينما ينزل عن سطوته وجلاله من أجل الحرية يزداد عمقًا..

الحب الذى يفسح مكانه للحرية هو الحب وقد ازداد عمقًا..

والحب لا يكون حبًّا إلا إذا التقى بالجنس وتجاوزه وارتفع فوقه ليحقق اتحادًا أعمق.

هل أقول شيئًا؟

إن أجمل مافى هذه الدنيا.. هو الهمس.. الكلمات الهامسة التى تنفجر بالشعور.. الأحلام التى تعبر رءوسنا كالأطياف ثم تلمس واقعنا فتضيئه بالأمل والحنان.. والمعنى..

هل تركت المعقول خلفى.. وذهبت أتلمس اللامعقول.. ربما..

إن الوجود أعظم وأشمل وأكبر.. من أن نخضعه لحكم العقل وحده.. فما العقل إلا بعض هذا الوجود، وجزء منه وظاهرة من ظاهراته، وإحدى التجارب التى تمت فى معمله اللانهائى.. وأنا لا أعتقد بإمكان إحالة الوجود إلى تصورات عقلية وشعارات منطقية..

الوجود أصيل جوهرى متعالى على كل محاولة للاحاطة به بالعقل..

والعالم العقلى بقوانينه وتحديداته وارتباطاته، لا يمكن أن تكون له أصالة.. إنه مجرد واقع مشتق مختلق نتيجة التصور..

لا أعتقد فى كفاية المنطق فى إصدار الأحكام النهائية، ولا أفهم كيف يحكم المنطق على إنسان بالاعدام.. كيف يدين إنسانًا إدانة نهائية ويحكم عليه بالفناء.. من أين للمنطق بكل هذا الجزم والقطع والتوكيد.. وأى حقيقة موضوعية يمكن أن ترجح كفة روح إنسان.

إنى أشعر بإحساس محرق ثاقب من الشفقة وأنا أنظر فى عينى إنسان على عتبة المشنقة.. إنى أرى فى عينيه ألم حيوان أخرس لا يجد كلامًا يعبر به.. أرى آلام البشرية كلها وأسمع صرخاتها.. وأشعر بأحزان العالم كله.

إن الاستسلام للمنطق والعقل وحده فيه استئصال لأجمل مافى الانسان.. روحه.. ووجدانه.. ضميره..

إن همسة رحمة.. فوق العدل بكل موازينه وفى الإنجيل.. لا تحكم حتى لا يحكم عليك..

من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر..

وفى القرآن ﴿وَلْيَعْفوا وَلْيَصْفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾.

إن شقاء الانسان أفدح من خطاياه.. ولا توجد رؤية من موضوعية ترجح هذه الحقيقة..

إن كل الفخامة التى أحاطت بكلمة البحث الموضوعى.. والنظرة الموضوعية.. والرؤية الموضوعية فخامة مبالغ فيها كثيرًا.

إن العالم الموضوعى عالم جامد راكد أسير الآلية والتكرار خاضع للقوانين الطبيعية والحتمية والمادية مغلول فى إسار السبب والنتيجة. لا يحتوى إلا على مدافن وتوابيت

أفكارنا ومشاعرنا وابتكاراتنا.. عالم معتقل.. ولا يمكن أن يؤخذ هذا العالم كحجة وحيدة علينا، فهناك فى الجانب الآخر عالم ذواتنا العميق الغامض البكر الذى تنبثق منه إحساساتنا بحرياتنا وإحساساتنا بالعالم الموضوعى نفسه، وإحساساتنا بالقيم.. الحق والخير والعدل والجمال والحب..

لا يمكن أن تحكم الإنسان غرائزه.

ولا يمكن أن تحكم الإنسان حاجته إلى الخبز وحدها..

لا يمكن أن تحكم الإنسان تبعيته لعالم من الموضوعات..

إن الإنسان فوق هذا كله..

إنه متعال على جميع ضروراته.. صاعد فوق نفسه.. يدفعه إلى فوق.. الوهم.. الحلم.. الأمل.. الطيف.. الذى يهمس فى أذنه.. أغنية المثاليات.. وأنشودة الحرية..

والإنسان الذى يترك نفسه لتحكمه شهوة الأرض والعقارات.. وشهوة الجنس.. وشهوة المعدة.. وشهوة القوة والسيطرة.. وبريق العالم الموضوعى هو إنسان معتقل.. أشرف ما فيه معتقل.. براءته.. بكارته.. شفافية روحه التى ولد بها متطلعة حرة متمردة ثائرة على كل الضرورات..

إنه لم ينجح

إنه سقط..

أما الناجح.. فهو ذلك الذى يصرخ منذ ميلاده.. جئت إلى العالم لأختلف معه.. ولا يكف عن رفع يده فى براءة الأطفال ليحطم بها كل ظلم وكل باطل..

* * *

اللعبة

المخ الأتوماتيكى.. العقل الألكترونى.. الرئة الصناعية.. القلب البلاستيك.. العين اللاسلكية..

هل تصنع إنسانا.. ؟؟!!

كل يوم نقرأ عن.. الإنسان الآلى.. المخ الأوتوماتيكى.. العقل الألكترونى.. ونسمع عن اختراع عين رادار لحراسة الخزائن.. وابتكار أذن لاسلكية لضبط اللصوص.. ورئة صناعية للمصابين بالشلل.. وكلية صناعية لمرضى البولينا.. وقلب بلاستيك لمرضى القلب..

هل معنى هذا أن العلم يستطيع أن يسوى لنا إنساناً يحس ويشعر ويمشى ويتكلم مثله مثلنا.. بمجرد تركيب بعض الوصلات الكهربائية واللمبات والبطاريات الترانزستور.

إن رجل الشارع حينما يقرأ هذه الأخبار يضحك..

ويقول بسذاجته المألوفة.. بقى معقول يخلقوا بنى آدم.. طيب وحاينفخوا فيه الروح منين..

وهى ليست ملاحظة ساذجة..

إن هذه الملاحظة هى الفارق الوحيد العميق بين الآلة.. والانسان.. إن أى اختراع من ساعة اليد إلى القنبلة الذرية إلى صاروخ القمر هو مجرد لعبة بزمبلك.

لعبة ليس فيها مخ.. ولا روح.. ولا إرادة.. لعبة لا تستطيع أن تريد لنفسها.. وإنما تتوقف على ما تريده أنت لها حينما تدير زمبلكها وتضبط عقاربها.

الآلة الكاتبة تكتب ما تمليه أنت عليها.. ولكنها لا تستطيع أن تؤلف لنفسها شيئًا.

والآلة الحاسبة تطرح وتجمع وتقسم.. ولكنها لا تستطيع أن تتعب وتيأس وتصرخ وتحتج على سخافة الأرقام التى تجمعها وتطرحها.

والرئة الصناعية تتنفس، ولكنها لا تستطيع أن تلهث بالخوف ولا باللهفة.

والقلب البلاستيك يدق.. ولكنه لا يستطيع أن يخفق بالحب ولا بالرغبة.

والشيء الذى ينقص هذه الأشياء نسميه الروح.. فما هى الروح؟

إن لوح الخشب يسبح فى الماء.. وسمك البحر يسبح هو الآخر فى الماء.

ولكن لوح الخشب ليست له إرادة.. إن كل ما يفعله أنه يسلم نفسه للتيار يقذف به إلى اليمين وإلى اليسار وإلى الأمام وإلى الخلف.. ويسلم نفسه للقوانين الطبيعية فترفعه إلى فوق بحكم كثافته الخفيفة.. ويسلم نفسه إلى عوامل الفساد والتلف تأكل فيه حتى يذوب ويتفتت إلى تراب.

أما سمك البحر فإنه يتحرك على كيفه.. على مزاجه.. فيسبح ضد التيار.. ولا يسلم نفسه للقانون الطبيعى، وإنما يثور عليه فيسبح صاعدًا ضد الجاذبية.. يسبح هابطًا ضد قانون الكثافة.. وهو لا يسلم نفسه لعوامل التلف والفساد، وإنما يتغذى وينمو ويتكاثر ويهاجم كل عدو يفكر فى قتله.

إن سمك البحر فيه روح..

دودة القطن.. وعود من أعواد المكرونة.. كلاهما يتلوى فى يدك وكلاهما رخو دودى.. ولكنهما مفترقان فيما عدا هذا المظهر.. ومختلفان جدًا.

عود المكرونة تجففه الشمس وتذيبه الرطوبة ويأكله

النمل.. وهو يستسلم لكل هذه العوامل بلا حيلة..

أما دودة القطن فإنها تقاوم كل هذه العوامل بإرادة عنيدة فيها.. وهى تفعل ما هو أكثر من هذا.. إنها تأكل التوكسافين.. وتتعود عليه وتكتسب مناعة ضده.. وتغالب هذا السم الزعاف وتغلبه.. لأن فيها روحًا..

حبة من الحصى.. وحبة من الذرة.. قد تتشابهان.. والنحات يستطيع أن ينحت من الحجر بذرة لا يمكنك أن تفرقها من بذرة الذرة.. ولكن إذا زرعت الاثنين فإن كلا منهما سوف تختلف كثيرًا عن الأخرى.

حبة الحصى سوف تغوص فى الطين وتشدها جاذبية الأرض. وحبة الذرة سوف يخرج منها جنين ينمو إلى فوق كالمقذوف ثائرا على جاذبية الأرض وصاعدًا بأوراقه الخضراء إلى الشمس..

إن حبة الذرة فيها روح..

ما هى الروح..

الروح ثورة على الضرورة والقوانين الآلية.. إنها حرية وذاتية.. وكيان.. وشخصية.. وإرادة.

ونحن نقول إن الإنسان له روح، لأنه لا يمكن إدارته

بزمبلك.. ولا شيء يديره سوى مزاجه وكيفه.. وحريته.. وهواه..

والعلم لن يستطيع أن يصنع إنسانًا.. لأنه لا يصنع إلا الزمبلكات.. ولا يبتكر إلا الماكينات والآلات التى يستغل فيها القوانين الطبيعية التى اكتشفها.

إنه يدور دائمًا فى نطاق الآلات والموضوعات المعقولة المنطقية.

والروح أولى صفاتها خرقها للقوانين وعلوها عليها وارتفاعها فوقها وفوق المنطق.. وفوق المعقول.. ولهذا فهى متجددة أبدًا.. لا يمكن التنبؤ بمكنونها.

فى الإمكان التنبؤ بكسوف الشمس.. وحركة القمر.. ولكن من المستحيل التنبؤ بالنوايا المكنونة فى نفس بشرية.. لأنها لا تخضع لقانون سوى قانونها.. وهواها ومزاجها..

وفى كلمة واحدة.. فيها روح.. فيها سر فوق متناول أى قوة..

الروح حرية.

إنها بدء مطلق لا سيطرة لأحد عليه..

الإنسان فيه روح.. لأن فيه حرية.. وهذه الحرية هى التى صنعت العلم بكل اختراعاته وابتكاراته.. وسوف تصنع مزيدًا من العلم كل يوم.. ولكن العلم لن يصنعها أبدًا.

الصدمة

حبيبتى.. عصفورى.. أمى
الصغيرة الجميلة العطوفة..
حديقتى.. سكنى.. افتحى لى الباب..
دعينى أختبئ بين ذراعيك..

كلنا بدأنا حياتنا فى غرفة صغيرة دافئة اسمها.. الرحم.. وفى هذه الغرفة كنا ننام فى أمان وقد ضممنا أذرعنا واستغرقنا فى سبات لذيذ، وتركنا الطبيعة تتولى أمرنا وتقوم على خدمتنا.. لا قلق.. لا خوف.. لا شك.. ولماذا القلق.. وكل شىء يصلنا حتى أمعائنا.. الطعام يصلنا مهضومًا.. والدم يصلنا مكررًا.. والأكسجين يصلنا جاهزًا دون أن نحرك رئاتنا ودون أن نفكر فى أن نتنفس.. الفضلات يغسلها دم الأم.. والحمام اليومى اللذيذ يتم فى بانيو لذيذ مثل البالونة ملىء بغسول مطهر.

كل شىء مجهز.. الخدمات تتم فى دقة وآلية.. وبإشراف مخلص يسهر عليه ملائكة مطهرون فى الخفاء.. فنحن نرقد فى أحضان السر الأعظم.. سر الحياة.. ونشعر أننا جزء من هذا السر الذى لا يطوله أحد..

ثم فجأة تطردنا قوة مجهولة.. وتقذف بنا من الدفء والأمان إلى دنيا واسعة مجهولة.

ونصرخ.. وقد تحولنا فى لحظة إلى قطعة لحم ضائعة لا تنتمى إلى شىء سوى نفسها. قطعة لحم ترفس بيديها ورجليها فى الهواء.. ولا شىء يمسك بها.

ثم تمتد ذراعان فى حنان.. وتمسكان بها فى رقة.. وتأخذانها إلى غرفة أخرى.. أكثر اتساعاً من الأولى.. وأكثر ضوءًا هى حضن الأم.. وصدر الأم.. وثدى الأم.

وننتقل إلى السكن الجديد.. وقد بدأ كل منا يدرك أن هناك شيئًا آخر اسمه.. الأم.. وهو يذهب إلى هذا الشىء الآخر ليرضع اللبن ثم يعود إلى نفسه ليهضم ويتنفس ويحبو ويصرخ ويضرب بيده على صدره العارى وقد بدأ يحس أن له كيانًا..

وينمو هذا الكيان.. ويكبر.. وينفصل شيئًا فشيئًا عن أصوله، ثم ما يلبث أن يكتشف نفسه.. يقول.. أنا.. أنا.. أنا

يـامامـا.. ويتخذ لـه طريقـة خاصـة يمشى بها.. ولهجـة خاصـة يتحدث بها.. ويقول عاوز.. لأ مش عاوز.. أحب ده.. لا أحب ده.. ثم يبدأ فى الانتقال من غرفة الأم إلى غرفة أوسع هى العائلة، ويكتشف أن هناك عدة أماكن أخرى يستطيع أن يلوذ بها ويجد فيها الأمان غير صدر أمه. هى صدر أبيه وأخيه وأخته وخاله وخالته وجده وعمه.. ويترك أمه ويبدأ فى التجول والمغامرة.

ومن مغامراته الأولى تنمو شخصيته وعواطفه ومخاوفه وميوله..

ثم يبدأ مغامرة جديدة فينزل إلى الشارع.. وفى مزيد من الخوف والفضول يكتشف أمكنة جديدة أوسع من الأولى.. يستطيع أن يلوذ بها ويلجأ إليها ويجد فيها الأمان.. المدرسة.. بيت الجيران.. حديقة الأطفال.

وشيئًا فشيئًا.. من الطفولة إلى الصبا إلى الشباب يتم انتقاله إلى البيت الواسع الكبير الذى اسمه المجتمع.. حيث يجد الرعاية والأمان فى أماكن كثيرة لا حصر لها.. فى الجامعة.. فى النادى.. فى النقابة.. فى المؤسسة الحكومية.. فى المنظمة السياسية.. فى الكنيسة.. فى المسجد ويكتشف أن هنـاك تشكيـلات من النـاس تقـوم بحمـايتـه والسهـر عـلى

شئـونه.. وزارة التمـوين تشرف عـلى تغذيتـه.. وزارة الصحة تشـرف على صحتـه.. وزارة العدل تشـرف عـلى أمنـه.. وزارة الدفاع تشرف على حريته. وهذه التشكيلات تشبـه الغدد فى أم كبـرى هى المجتمع.. تعمـل فى نظام.. وهـو لائذ بهـا.. كما يلوذ الطفل بالرحم.. ولكنه رحم كبير.. والجنين فيه ليس نطفة لحم مشلولة ملتصقة به لا حول لها ولا قوة.. ولكنه فرد كامل له حريته واستقلاله.. وعلاقته بهذا المجتمع الأم ليست علاقة التصاق وتواكل وتطفل.. ولكنها علاقة مشاركة.. علاقة مغامرة يلتقط فيها الفرص والإمكانيات وينمو ويتطور ويختار حياته ومزاجه.. ويشكل أفعاله كما يشاء..

إن المجتمع ليس غرفة صماء جامدة مثل الرحم.. ولكنها غرفة مفتوحة على عدة غرف.. وأنظمة مفتوحة للتغيير والتعديل المستمر.. وفرص وإمكانيات لا آخر لها.. وتيار فى حركة دائبة.. ونهر فى اتساع وفى ثراء دائم.

والإنسان الطبيعى الذى انتقل فى كل أدوار حياته انتقالات طبيعية وتكاملت شخصيته من مرحلة إلى مرحلة.. وتطورت نفسه.. ينزل إلى الحياة كما ينزل فى رحلة خلوية جميلة مليئة بالمفاجآت.. ويغامر فى هذه الحياة بملء نفسه دون

أن يخشى أن يخسر نفسه.. وقد امتلأ إحساسا بأنه حر وأنه قادر ومسئول.. وأنه يستطيع أن يفعل شيئًا.. وأن فاعليته يمكن أن تمتد إلى عائلته وإلى جيرانه وإلى بلده وإلى المجتمع والدنيا والانسانية والتاريخ.. وأنه يستطيع أن يترك أثرًا.. وأنه يستطيع أن يجعل لحياته معنى ولموته معنى..

الحياة بالنسبة لهذا الإنسان نشوة ومتعة وجمال.. ورحلة يوم مشرق دافئ.

ولكن الأمر يختلف كثيرًا.. إذا كان هذا الإنسان قد تلقى صدمة عنيفة قطعت الطريق على تطوره.. وخنقت روحه وهى تأخذ أول أنفاسها.

وهناك ألف نوع ونوع من الصدمة.

- المرض الحاد الذى يلم بالطفل وهو فى باكورة حياته فيقعده.

- الحياة فى بيت لا يكف فيه الشقاق والخناق بين الأم والأب وحيرة الابن وتمزقه بين حبيبين لا يعرف أيهما يكره وأيهما يحب.

- امرأة الأب.. وزوج الأم.. والجو المشبع بالاضطهاد والبغضاء.

- شعور الابن أنه الطفل المكروه وأن العائلة تفضل عليه أخاه.

- النظام الصارم فى البيوت القديمة التى يعيش فيها الأولاد كقطيع من الكلاب بلا كلمة وبلا رأى.

- التدليل المفرط فى البيوت العصرية الذى يجعل أول خطوة يخطوها الابن إلى الحياة مجازفة قاتلة وصدمة لا يقوى عليها.

- الشعور بالنقص نتيجة اللون أو العاهة أو الانتماء لأقلية منبوذة.

- اكتشاف الأم فى فراش الخطيئة.. وتمزق الابن بين حبه لأمه.. وكراهيته لأمه.. فى نفس الوقت.. وتمزقه بين واقعه.. ومعتقداته.

- الفشل فى المدرسة والإفلاس فى العمل والخيبة فى الحب.. والشعور بالذنب.

ونتيجة هذه الصدمات أن يتوقف التطور الطبيعى ويتوقف نمو الشخصية.. وبدلا من الروح التى كانت فى طريقها إلى التحرر والانفراج والانطلاق والخروج إلى الدنيا والتعامل مع الحياة، تعود هذه الروح فتنضم على نفسها.. تنكمش.. وتلتصق كما يلتصق الجنين بالرحم..

يلتصق المصدوم بنفسه.. بغرفته.. وينطوى.. وينشغل بإيجاد حلول لمأساته الداخلية ويفقد الانتباه والاهتمام بما يجرى حوله ويفقد الاتصال بالناس وتفوته الفرص والإمكانيات ويفشل..

والنفسانيون يسمون هذه الحالة بالنكوص.. لأن الانسان ينكص فيها ويعود إلى حالته الأولى حينما كان ملتصقًا برحم أمه ويعيش متواكلا متطفلا لا يشارك فى الحياة.

وهذه العودة سببها أن المصدوم قد افتقد الأمان فى الدنيا، فعاد يبحث عنه فى صورته الأولى فى رحم أمه.

وهو يحاول أن يجد بديلا عن الأمان الذى افتقده فى أشياء كثيرة.. فى الطعام.. فى الجنس.. وهو يأكل بكثرة وبشراهة.. ويبحث عن الإشباع فى الجنس.. ولا إشباع أبدًا.. ويطلق أحكامًا نهائية عل كل شىء.. فالناس أنذال.. والفن الحديث حثالة.. الجيل الجديد زفت.. والنساء خائنات.. والأطباء لصوص.. والسياسة نصب.. والعالم يسير إلى الخراب..

وكل هذه ليست أحكامًا منطقية نتيجة لتفكير.. ولكنها ذرائع ومبررات يتذرع بها ليبرر انكماشه وانطواءه.

إنها ظله التعس وقد سقط على الدنيا.. ظل ثورته على نفسه وقد تحول إلى ثورة على الناس.. وكراهيته لنفسه وقد تحولت إلى كراهية للناس.

وعلاج المصدوم لا يكون بإعادة الصلة بينه وبين الناس.. ولكن بإعادة الصلة بينه وبين نفسه.. بإعادة الصداقة بينه وبين نفسه.. وبإعادة تركيبه من الداخل على وشائج جديدة من الحب والتوافق.. وبتحليل تاريخه إلى عناصره الأولية التى باعدت بينه وبين نفسه ومزقت وجدانه إلى أشلاء دامية حائرة بين الحب والبغض..

والعلاج هو.. الإفشاء.. والإفتاء.. والمفاتحة.. والمكاشفة.. والمناجاة الحميمة بين يدى صديق.. أو حبيب..

والصداقة الحميمة علاج أحسن من الطب، لأن التكاشف فيها يتم عن تراض وعن تعاطف وعن حب وعن ثقة.. بدون غرض وبدون أجر.. الصداقة لها أيد ناعمة تستل الأسرار من مكامنها وتحفظها وتحنو عليها.. وتضمد الجراح وتأسو الآلام..

الصديق طبيب عظيم لا يقدر بثمن.. والحبيبة أم عطوف حنون لها لمسة مخدرة..

احتفظ بصديق تفتح له قلبك.. وتكشف له خباياك

وجروحك.. صديق تغضب معه.. وتثور معه.. وتكره معه.

إن الصديق أحسن وقاية من الصدمات.. لأنك فى كل مرة تكاشفه فيها.. تتحلل نفسك. ثم يتم تركيبها من جديد فى سياق سليم..

* * *

النّمل

كأسراب النمـل.. كنقط صغيرة متدافعة.. إنى لا أستـطيع التمييـز بين وجوهكم.. لأنى أنظر من فوق.. من فوق..

من على ارتفاع شاهق يبدو كل الناس مثل بعض.. يبدون كالنمل.. سحنتهم واحدة.. وهيكلهم واحد. مجرد نقط تندفع فى اتجاهات متعددة.

وإذا صعدت إلى أعلى برج فى القاهرة ثم نظرت إلى الناس تحت فإنك سوف تراهم مجرد نقط.. مجرد كرات تتدحرج على أديم الأرض ككرات البلياردو.. وستبدو عربات المرسيدس الفارهة كطوابير من الصراصير اللامعة..

إن الأمور تختلف كثيراً حينما ننظر إليها من بعيد.. إنها

تتضاءل وتتشابه وتصبح ذات سحنة واحدة.. وتصبح تافهة مثيرة للدهشة والتساؤل..

إنك تتعجب وأنت فوق فى علوك الشاهق تنظر إلى الصرصار الصغير المرسيدس.. وتسأل نفسك. أهذا هو الشىء الذى كنت طول عمرك تحلم بأن تقتنيه؟!

من أجل هذا الصرصار يحدث أحياناً أن يرتكب رجل عاقل جريمة، فيسرق ويقتل ليجمع بضع جنيهات يشترى بها هذا الصرصار؟! من أجل أن يكون وجيهًا أنيقا؟.. ولكن لا يبدو أن هناك فارقًا بين الأناقة والبهدلة من هذا الارتفاع الشاهق.. إن كل الثياب تبدو واحدة من فوق.. أجمل النساء تبدو كأقبح النساء.. الوجوه الفاتنة والقبيحة تبدو من فوق كوجوه الدجاج.. لا فرق بين ملامح دجاجة وملامح دجاجة أخرى.. لا تبدو غمزة العين ولا هزة الحاجب ولا بسمة الشفتين.. وكل ما يبدو هما ثقبان مكان العينين وثقب مكان الفم.. ولا شىء غير هذا.. كل مخلوق من هذه المخلوقات التى تهرول تحت.. له ثلاثة ثقوب فى وجهه ومنقار صغير هو أنفه.. وكل واحد يجرى ويدفع الآخر أمامه.. ويدفعه آخر من خلفه.. وأنت تتساءل.. على إيه.. على إيه.. بيجرى ليه الراجل ده.. مستعجل ليه.. عاوز إيه؟

والحكاية كلها تبدو لك من فوق حكاية مضحكة غير مفهومة.. وقد تنسى بعض الوقت أنك كنت منذ لحظة تهرول فى الشارع مثل هؤلاء الناس وتجرى وتدفع الناس أمامك وتصرخ فى سائق التاكسى أن يسرع بك..

هذا الحماس الذى كان يبدو لك وأنت تحت فى الشارع تعيش فى وهمك.. هذا الحماس الذى كان يبدو لك حينذاك معقولا. يبدو لك الآن من بعيد مضحكًا مثيرًا للدهشة..

وعلى إيه.. على إيه كل الجرى ده.. عشان واحد يسبق التانى.. يسبقه يروح فين.. حا يأخذ إيه بعد جريه ولا حاجة.. كله محصل بعضه.. كله طظ.. فى طظ..

وقد تدب خناقة بين اثنين تحت ويتجمع الناس كما يتجمع النمل حول ذرة تراب غريبة.. وتنظر أنت من فوق فتبدو لك الخناقة منظرًا غريبًا، ويبدو لك الموقف مشحونا بحماس غير مفهوم.. بحماس طائش أبله ليست له دوافع طبيعية..

لماذا يقتل رجل رجلا آخر ويزاحمه فى شبر صغير من الأرض يقف فيه مع أن الدنيا أمامه واسعة..

والدنيا تبدو لك من فوق واسعة.. واسعة جدًّا.. تبدو لك أوسع من أن يتقاتل اثنان على شبر صغير فيها..

إنك تكتشف سخافة الشر.. وسخافة الناس.. وسخافة السرعة.. وسخافة الآلة..

إن هذا الشبر موضع التنافس والتقاتل يبدو لك طظ.

إنك تسأل نفسك لأول مرة. لماذا كل هذا الجرى؟!

وتتفتح حواسك على آفاق رحبة تخرجك من سجن أنانيتك وصغار حياتك فتبدو لك اهتماماتك الصغيرة هيافة.. طظ فيها.

وهناك لحظات تستطيع أن تتحقق فيها من هذه الطظ بدون أن تصعد على برج القاهرة وتنظر إلى الناس تحت..

هناك لحظات نادرة تستطيع أن تخلع فيها نفسك من مشكلاتك التى تضيق عليك الخناق وتحصرك فى رقعة ضيقة هى مصلحتك.. وتنظر إلى روحك كأنك تنظر إليها من فوق دون أن تصعد إلى فوق فعلا.. وتنظر متأملا متعجبًا.. وتتساءل مندهشًا..

ولماذا كان كل هذا الاندفاع.. لماذا كان هذا الحماس والتهور على لا شىء..

وليه عملت كده.. كنت محموق على يه.. إيه اللى خلانى أعمل كل اللى عملته.. إيه اللى خلانى أتخانق وأفقد صوابى..

وفى هذه اللحظات الخاطفة تفيق إلى نفسك.. وتتجلى عليك رؤية واسعة لحياتك وتتسع أمامك شاشة واقعك فتصبح شاشة بانورامية.. سينما سكوب.. وتسترد قدرتك على الحكم الدقيق العاقل.. تسترد قدرتك على الإمساك بفراملك والسيطرة على حياتك لأنك ترى ظروفك كلها دفعة واحدة وترى معها ظروف غيرك وظروف الدنيا فتتضاءل مشكلتك وتصبح طظ فيها..

وأنا عيبى.. وربما ميزتى.. لست أدرى بالضبط.. إنى اكتشفت هذه الحكاية من زمان وجربتها وتلذذت بها فقررت أن أقضى أغلب حياتى فوق.. فى هذا البرج الذى طار من عقلى.. أتأمل نفسى وأنا ألعب تحت على الأرض.. وأفهم نفسى أكثر.. وأتعقل حياتى أكثر..

وكانت النتيجة أنى نسيت اللعب.. وتحولت إلى متفرج مزمن.. جالس طول الوقت فوق.. فى منصة الحكم.. ونسيت أن الصعود إلى برج المراقبة هذا لا يكون إلا لحظات خاطفة.. لإلقاء نظرات خاطفة ولوقفات تأمل خاطفة.. نصلح فيها هندامنا.. ونصلح نفوسنا.. ثم ننزل بعدها لنستأنف اللعب..

وأدمنت على الجلوس فوق.. والنظر من فوق حيث يبدو كل شيء طظ..

وجاء العيد..

وسمعت صوت البمب تحت نافذتى.. وشعرت أن كل واحد يلعب ويجرى ويكركر بالضحك إلا أنا.. جالس وحدى كالغراب فى برج عقلى الذى طار.. أقول طظ..

وشعرت بالثورة على هذه الوظيفة اللعينة التى اخترتها.. هذه الوظيفة التى تحرمنى من اللعب وتحرمنى من بهجة الحماقة. ولذة التهور..

وقررت أن أتهور وألعب وأجرى.. وأستمتع بالعيد مثل العيال..

وملأت جيبى بالبمب.. وسرت أطرقعه باليمين وبالشمال..

ثم ذهبت إلى روف جاردن لأشرب كوبًا من البيرة، مثل أى شاب أحمق..

وكان الروف جاردن فى الدور السادس عشر من عمارة عالية.. كناطحة سحاب..

ولذ لى أن أنظر من فوق.. إلى الدنيا تحت.. فماذا كانت النتيجة..

كانت النتيجة أنى رأيت الناس تحت يبدون كالنمل.. سحنتهم واحدة.. وهياكلهم واحدة.. مجرد نقط تتدافع فى اتجاهات متعددة.. ونسيت كوب البيرة ونسيت اللذة الحمقاء التى جئت من أجلها.. ونسيت العيد.. ونسيت اللعب.. وبدت لى كل هذه الأشياء صغيرة تافهة..

واقرءوا معى المقال من الأول..

❊ ❊ ❊

الرجل والرجل

إلهى أيها القادر على كل شىء.
من أكون أنا غير الخوف الذى يشعر
به الآخرون نحوى.. ؟!

حياة كل منا عبارة عن مدفن واسع نضع فيه أنفسنا.. منذ اللحظة التى نصحو فيها تستولى علينا مئات الهموم الصغيرة والانشغالات التافهة، والواجبات الروتينية والمجاملات والأمور التى نأتيها كل يوم بدون تفكير بحكم العادة..

ندخل الحمام.. نفطر.. نشرب الشاى. نلبس ثيابنا.. نقول صباح الخير لكل واحد نلقاه.. نجلس على نفس المكتب فى نفس الكرسى.. ونقول نفس الكلام لنفس الذى يجلس أمامنا فى مكان عملنا.. نعود إلى البيت من نفس الطريق.. ونفتح الباب بنفس المفتاح.. ونقول سلامو عليكم

لنفس الإخوة والأقارب الذين نلقاهم كل مرة.. إلخ.. إلخ.. ألف شىء وشىء تافه..

زمن طويل مفقود.. لا نعيشه.. وإنما نحمل جثتنا التى تفوح منها رائحة الملل من لحظة إلى لحظة.. ونظل نواصل السير كمن يمشى فى نومه.. ونظل نؤجل ما يعتمل فى نفوسنا.. ونخفى رغباتنا خلف سد عال من الصبر والاحتمال.. ونعيش فى عبودية يحكمنا دكتاتور غليظ اسمه.. الناس.. حتى تأتى لحظة حرجة نفقد فيها الصبر والاحتمال ونطق من الغيظ والقرف والملل وننفجر.. ونبحث عن آدمى ننفجر فيه.. ونبحث عن إنسان لنكلمه.. ونفضفض معه.. نفتح له قلوبنا.. ونفوسنا.. ونلقى أمامه بأسرارنا..

وهذه اللحظة هى بداية البحث عن صديق.. والصداقة ليست علاقة عادية بين رجل ورجل..

إن أول شىء يعمد الأصدقاء إلى قتله والفتك به هو العادة.. الصداقة ثورة على العادة وعلى ديكتاتورية المجتمع والناس.. وخلوة.. يتطارح فيها نفسان..

ولذة الصداقة هى هذا العرى النفسى.. والمكاشفة.. والصراحة..

إن المهر الذى يقدمه الرجل للرجل، ومقدم الصداق الذى يدفعه.. هو إعفاؤه من التكلف والمجاملة..

إنه يقول له..

كن نفسك.. لا تتنازل من أجلى عن شيء من حريتك..

وهو يفعل ما هو أكثر من ذلك..

يقدم له المعونة ليصل إلى كنه نفسه ويعبر عنها..

إن الصديق الحقيقى لا تكون له مصلحة خاصة من صداقته سوى أن يفهم نفسه أكثر وأكثر ويصل إلى حريته.. ويعطى صديقه نفس الفرصة فى أن يبلغ حريته ويفهم نفسه..

إن غاية الصداقة هى النجاة بالحرية من اختناق المجتمع وصفاقة الناس وثقل العادة..

وأنا لا يزعجنى من صديقى أفعاله التى تجرحنى.. ولكن يزعجنى أفعاله التى يفقد بها حريته.. أو أفقد أنا بها حريتى.. لأنها تهدد الصداقة فى جوهرها..

وصداقة الرجل بالرجل أكثر صفاءً ووضوحاً من علاقة الرجل بالمرأة.. لأن علاقة الرجل بالمرأة تتدخل فيها الطبيعة كطرف ثالث له مصلحة.

الطبيعة لها غرض من التقاء الرجل بالمرأة.. فهى تريد طفلا من التقاء الاثنين.. ولهذا تشوش عليهما بمطالبها..

ولكنها غير موجودة فى علاقة الرجل بالرجل..

إن الرجل يطلب الرجل لحاجة روحية صرفة..

والفيلسوف الوجودى سارتر له نظرية خاصة فى الصداقة..

إنه يعتقد أنها تحتوى على العداوة والخوف والتربص.. كل واحد يتربص بالآخر ليستولى عليه ويبتلع إمكانياته.. وهو يشعر بالحاجة إليه.. وبالخوف منه فى نفس الوقت.

وفى رواية التعلق.. يقول دانيل لصديقه ماتيو.. هل ستصدقنى حينما أقول لك إنى لم أكن أفهم من أنا ومن أكون وما هى رذائلى.. وكأنما يعترض أنفى طريق رؤيتى فلا أستطيع أن أتراجع مبتعدًا عنها بما يكفى لكى أراها.. وكنت أنت فى تلك اللحظة الوسيط بينى وبين نفسى..

وهذا أثمن شيء لدى.. إذ أن هذا الكائن الجامد الصفيق الذى هو أنا.. استطعت أنت أن تراه فى بساطة كما أراك أنت.. وحينئذ أدركت أن الإنسان لا يستطيع أن يبلغ نفسه إلا عن طريق بغض الآخر له.. ولست أدرى بأى اسم تسمى هذه العلاقات القائمة بيننا.. إنها ليست الحب..

كما إنها ليست الكراهية تمامًا.. فلنقل إن هناك جثة تفصل بيننا.. وهذه الجثة هى جثتى أنا..

وفى مسرحية الذباب يقول إيجيست لرعاياه.

إننى أريد أن يحمل كل واحد من رعاياى صورتى فى نفسه، وأن يشعر حتى فى وحدته بنظرتى القاسية تجثم على أشد أفكاره سرية..

وأقول وأنا حزين إننى أنا نفسى أصبحت أول ضحية لذلك، فلم أعد أرى نفسى إلا كما يرانى هؤلاء الرعايا.. وإنى لأنحنى فى بئر نفوسهم وأشعر أنها تنفرنى وتجذبنى.. إلهى أيها القادر على كل شىء.. من أكون أنا غير الخوف الذى يشعر به الآخرون نحوى..

والحب فى نظر سارتر ما هو إلا قناع لإرادة الامتلاك والسيطرة.. العاشق لا يبتغى إلا امتلاكَ المعشوق بكل الوسائل.. وينتهى الصراع بأن يبتلع الواحد الآخر..

وأفكار سارتر فيها عداوة أكثر مما فيها من الصداقة.. وفيها يأس من الواقع لا مبرر له..

وكل النماذج التى يعرضها سارتر فى مسرحياته هى نماذج فاشلة يائسة تنتهى بالانتحار.. ولا يمكن أن تكون

هذه النماذج هى الإنسانية التى نشاهدها حولنا تضحك وتلعب..

إن السعادة فى الصداقة وفى الحب التى جربها كل منا تدل على إمكان قيام العلاقة الإنسانية.

والصداقة فى نظرى صراع عاشق.. العداوة فيها عداوة فاضلة تحفز وتشحذ وتدفع وتستنهض للعمل.. وليست عداوة تهدم وتهزم وتبتلع وتسيطر وتشل القوى.. إنها كعداوة المتسابقين.. تتحدى وتهيب بكل واحد أن يبذل أقصى سرعته..

الصداقة صراع متبادل من أجل أن يرتفع الاثنان إلى معرفة أكثر.. وحرية أكثر.. ودراية أكثر بنفسيهما.. ومعونة متبادلة مفعمة بالرجاء والأمل.. والحب..

وحينما لا نجد الحب.. وحينما لا نجد الصداقة.. فليس معنى هذا أنه لا يوجد الحب ولا توجد الصداقة.. وإنما معنى هذا أننا لم نجد الرجل الناضج.. ولم نجد المرأة الناضجة بعد..

والقلوب الكبيرة قليلة.. نادرة مثل كل شىء نادر.. والقلوب الصغيرة موجودة بكثرة النمل..

* * *

الواقع أن..

كشفت وجه الواقع.. فرأيت نفسي وكان وجهي غريبًا.. كأنه وجه رجل آخر..

الواقع كثيرًا ما يكذب.. وحواسنا كثيرًا ما تضللنا..

حواسنا تقول إن الشمس تدور كل يوم حول الأرض.. ولكن هذا الواقع الساذج لم يستطع الوقوف على قدميه أمام البحث.. وثبت أن الأرض هى التى تدور حول الشمس..

وبالمثل يبدو لنا القمر كل ليلة وكأنه أكبر كواكب السماء.. ومع ذلك فهو فى الحقيقة أصغرها..

وحواسنا تدرك المادة على أنها شىء جامد متماسك.. لكن الحقيقة أن المادة مفرغة مخلخلة.. وأشد المواد صلابة كالحديد مخلخل فى داخله ومؤلف من ملايين الذرات المنثورة فى فراغ أثيرى.. وبين كل ذرة وأخرى مسافة كبيرة خلاء..

والذرة نفسها مؤلفة من هباء مخلخل.. نواة تدور حولها كهارب فى فلك أثيرى خلو من أى شىء.. ولكن العين لا ترى هذه المسام الواسعة.. ولا ترى الذرات على حقيقتها وهى متباعدة عن بعضها البعض.. وإنما ترى كتلة مصمتة من الحديد.

والأعجب من هذا.. أنه ثبت أن ذرات المادة يمكن تحطيمها وسحقها وطحنها وكبسها فى حيز صغير جدًّا.. وهذا هو ما يحدث فى باطن النجوم الملتهبة.. فالذرات فى باطن النجوم تتحطم وتنسحق من فرط الحرارة ثم يتم كبسها تحت ضغط هائل إلى حيز صغير جدًّا بدرجة أن المتر المكعب يحتوى على عدة ملايين من أطنان المادة المضغوطة.

وإذا أمكن كبس الكرة الأرضية وسحقها بهذه الطريقة فإنه يصبح بالإمكان أن توضع كلها فى كيس متوسط الحجم.

إن الدلالة الواقعية للحجم أصبحت هى الأخرى دلالة كاذبة.

والإحساس بالوزن هو الآخر إحساس كاذب.. لأنه فى الحقيقة ليس إحساسًا بوزن الشىء، وإنما هو إحساس بجذب الأرض لهذا الشىء بدليل أن الأوزان كلها تصبح

خفيفة جدًّا على سطح القمر.. لأن جاذبية القمر ضعيفة.. وتصبح ثقيلة جدًّا على سطح الشمس لأن جاذبية الشمس هائلة.. بدرجة أن بطل رفع الأثقال لا يستطيع أن يرفع جرامًا واحدًا من سطح الشمس إلا بجهد خارق..

والنور الذى يبدو لنا أنه شىء لطيف روحانى بلا وزن.. هو فى حقيقته ذو وزن.. وقد ثبت بالقياس أن الشمس تفقد من وزنها أربعة ملايين طن فى الثانية تتحول كلها إلى أشعة ضوئية.. ومعنى هذا أن وزن النور الذى ينصب من الشمس كل ثانية يماثل ما ينصب من الماء من فتحات القناطر الخيرية ٧٠٠ مرة.

ومنظر النجوم الذى يطالعنا فى المساء.. فيخيل إلينا أننا نشاهد فيه واقع النجوم كما هى فى لحظة الرؤية.. هو فى الحقيقة منظرها منذ ألوف السنين.. لأن شعاع النور الذى نراها به قد استغرق فى رحلته فى الفضاء ليصل إلى عيوننا ألوف السنين الضوئية.. إنها مثل صورة بالبريد ضاعت فى البوسطة ومضى على تاريخها أعوام طويلة..

إننا نشاهد كل ليلة فى السماء منظرًا قديمًا جدًّا تأخر وصوله.

أما منظر النجوم كما تبدو اليوم فلن يراه إلا احفاد

أحفادنا.. لأن الشعاع الذى انطلق منها ما زال أمامه ألوف السنين يقضيها مترنحًا فى الفضاء حتى يصل إلى الأرض..

إن المحسوسات كما تأتينا فى الواقع أغلبها كاذبة.. وكلها نسبية.

والاحتكام إلى الواقع المادى كمرجع نهائى خطأ.. لأن هناك ألف نوع من الواقع..

الدنيا كما يراها الصرصور واقع.

والدنيا كما يراها الإنسان بعينه المجردة واقع.

والدنيا كما تبدو فى الميكروسكوب واقع. والدنيا كما تبدو فى التلسكوب واقع.

والدنيا كما تبدو باعمال الفكر واستخدام المنطق والحساب واقع.

وليس الواقع المادى الخارجى هو الواقع الوحيد فهناك واقع أكثر خطرًا هو الواقع النفسى الداخلى.. واقع العاطفة والوجدان.. هو واقع أكثر تعقيدًا وغموضًا من واقع المادة.. وهو واقع يكذب حتى على صاحبه.. فما يظنه العاشق الولهان قد يكون مجرد شهوة.. وما يظنه شهوة قد يكون هروبًا.. وقد يكون غرورًا.. وقد يكون رغبة فى السيطرة والتحكم وقد يكون لونًا من ألوان التفاخر والتباهى كما يتباهى

الطاووس بريشه، يتباهى العاشق بفحولته.. وقد يكون رغبة فى الإذلال والانتقام.

وما يبدو فى الظاهر أنه كراهية قد يكون حبًّا.

وثورة الرجل على المرأة وقسوته ووحشيته وقوته قد تخفى فى داخلها الضعف والخوف والجبن والهوان والحب الذليل اليائس.

وشجاعة الرجل وتهوره وفدائيته فى الحرب قد تخفى فى داخلها رغبة فى الموت والانتحار وإحساسات دفينة بالذنب..

وبرود الرجل وتعقله ورزانته قد تخفى فى داخلها طبعا عاطفيا محموما.

والتدين والورع والتقوى الشديدة قد تخفى فى داخلها رغبة قصوى فى تعذيب الناس وإدانتهم ومعاملتهم كخطاة مذنبين وقذفهم فى جهنم.

والطيبة والرقة والحنان قد تكون طلاءً جميلا لعاهة أو شوهة جسدية.. والعفة قد تكون قِناعًا مهذبًا لعقدة نقص.

النفس دغل كثيف.. والواقع النفسى ملىء بالتمويه.. وهو يشبه ستائر ملونة مزخرفة موضوعة بعضها وراء بعض.. كلما انهتك ستر انكشف ستر آخر من ورائه.

ليس هناك واقع واحد.. وإنما هناك ألف واقع.. على مستويات متفاوتة من الصدق والحقيقة.

* * *

والمنظر المألوف الذى تراه كل يوم على المقهى.. منظر الرجل الذى يلوح بذراعه ويهتف فى نبرة كلها توكيد.

الواقع أن..

هذا المنظر فيه من الغرور والسذاجة أكثر مما فيه من الصدق.. فالواقع لا يمكن الوصول إليه بتلويحة ذراع..

الواقع لا يمكن الاستدلال عليه بشهادة الحواس ولا بتوكيد العاطفة وحدها..

والواقع الحسى.. والواقع العاطفى.. رتبتان سطحيتان من مراتب الواقع..

والواقع الحقيقى لا يمكن بلوغه إلا بمناقشة كل المستندات.. مستندات من الرؤية والسماع والإحساس والعاطفة والالهام.. ومستندات من المعمل ومن المرصد ومن التحليل الكيميائى والبكتريولوجى.. والإحصاء.. ويراجع العقل هذه المستندات بعضها على بعض.. ثم يكتشف منها أعمق أنواع الواقع.

وغالبًا ما يكون الواقع الذى يكتشفه العقل واقعًا جديدًا تمامًا.. فالأرض ليست واقفة ولكنها تدور.. وليست منبسطة ولكنها كروية.. وليست مركزاً تدور حوله الشمس، ولكنها تابع يتبع الشمس فى مدارها..

والسماء ليست زرقاء.. والسبب فى زرقتها الخادعة هو تكسر أمواج الأشعة الزرقاء القادمة من الشمس على الغلاف الجوى وتشتتها وانفصالها عن بقية ألوان الطيف..

والماء يرتفع فى المحيطات فى المد لأن القمر يشده ويجذبه إليه.

والقمر يعطى للأرض وجهًا واحدًا لا يغيره لأن الأرض تمسكه بالجاذبية فيدور حولها وهو مسمر فى مكانه..

وهذا الرجل مثلا تزوج هذه المرأة ليس لأنه يحبها.. ولكن لأنه يكره نفسه.. ويريد أن يعاقب نفسه بالزواج منها.

وهذه المرأة استسلمت لهذا الرجل ليس لأنها تحبه، ولكن لأنها تريد أن تنتقم من زوجها..

والواقع دائمًا جديد ومدهش.. وهو دائمًا شىء آخر غير الواقع المبتذل السطحى الذى يبدو لأول وهلة.

وأحسن تسلية تضيع بها وقت فراغك أن تجلس وحدك

فى عزلة.. وتغمض عينيك.. وتذاكر العواطف التى شعرت بها.. وكل الدوافع التى تأرجحت بينها.. وكل الأفعال التى أتيتها.. والكلمات التى قلتها والنيات التى أخفيتها.. ثم تحاول أن تصل إلى حقيقتك وتعرف واقعك وستجد أن واقعك سيدهشك ويفاجئك.. كأنه واقع رجل آخر لا تعرفه.

* * *

نسيان.. صمت.. إلى الأبد

اشرب كونياك الشام..
تنسى كل الآلام..
فخر البارات.. وشراب
البكوات.. ورسول الملذات..

الجمعة.. الساعة الثانية بعد منتصف الليل.. وأنا جالس فى غرفة الأرشيف.. أقرأ فى أعداد المجلات القديمة التى صدرت منذ ثلاثين عامًا..

دنيا.. !!

.. عالم غريب. تتنقل فيه كأنك تتنقل فى منطقة أثرية.
كل شىء غريب حتى براويز الإعلانات..
هذا برواز فى مكان بارز على يمين الصفحة.
محلات المليم بشارع جامع جركس بجوار ترام الخليج..
جميع أسطوانات المطربين بسعر ٨ صاغ الأسطوانة..

.. ما الذى أتى بترام الخليج إلى جوار جامع جركس ؟!!.
يبدو أن القاهرة كان لها تخطيط آخر غير الذى نعرفه.

وإعلان آخر فى مربع صغير..
حبوب الإمام الشافعى.. أحدث علاج للبول السكرى.
وإعلان كبير مزخرف بالرسوم.

اليوم فى سينما توغراف أوليمبيا الوطنى الكبير.. مسرحية الذبائح.. تأليف أنطون يزبك.. الرواية العظيمة التى تستدر البكاء.. وتحرك التشنجات..

هل سمعت عن أنطون يزبك.. محرك التشنجات ومدر الدموع هذا..؟؟
وإعلان صفحة كاملة.
صالة لونابارك.. نادى الطبقات الراقية، رقص شرقى من تحية.. وعيوشة.. وبهية..
رواية الجوز العجالى لملوك الفكاهة.
ألعاب سيماوية.
برنامج طرب يتغير يوميًا..
وصورة كبيرة للشاعر الكبير شوقى بك.. لا.. إنها

ليست بمناسبة ذكراه.. ولا بمناسبة وفاته، إنه بلحمه ودمه فى عنفوان حياته إنه يمسك بيده سيجارة ماركة آمون.. ويقول:

سيجارة آمون لتدخينها لذة لا يعرفها إلا كل خبير فى الدخان.

هذا هو شوقى بكل هالة القداسة التى نحيطه بها.. مرسوم على إعلان سجائر..

ونجوم السينما والمسرح.. لا نكاد نعرف منهم أحدًا ولو بالسماع هنرييت كوهين.. مارى منصور.. رتيبة رشدى.. دولت قصبجى.. وملوك الفكاهة.. كشكش والكسار..

وكواكب هوليوود.. مارى بيكفورد.. كولين مور.. جاكى كوجان.. ليليان جيش..

واستفتاء عن فتحية أحمد ومنيرة المهدية وأم كلثوم.. تفوز فيه فتحية أحمد بأنها المطربة الأولى.. ومنيرة المهدية المطربة الثانية.. وأم كلثوم تأتى فى الآخر.. جبر خاطر..

والكاريكاتير السياسى.. لعدلى يكن.. زكى الإبراشى.. القيسى باشا.. الغرابلى باشا.. وسير ماكدونالد..

هل تعرفهم..

وفى صفحة الفن.. ريبورتاج حول صلعة عزيز عيد.. ومقال عن المطرب الشعبى الشهير سيد شطا.. وما ينتظره

من مستقبل زاهر لامع.. ورثاء مؤثر عن وفاة رن تن تن أشهر وأغنى كلب فى العالم.

ومقال بليغ عن وفاة السيدة توحيدة المغنية فى ختامه هذه العبارات المؤثرة..

.وبوفاة المطربة العظيمة السيدة توحيدة المغنية طويت صفحة رائعة من تاريخ الغناء المصرى لمعت فيها أسماء خالدة مثل أمينة الصيرفية ومحرمة اللاوندية.. والكمسارية.. ونزهة..

وتوحيدة بدأت حياتها راقصة مغنية فى كلوت بك.. ترقص وتغنى.. على دول يا ماما على دول.. وكانت حياتها حافلة بجلائل الأعمال.

وتحت النعى إعلان كونياك..

اشرب كونياك الشام.. تنسى كل الآلام..

فخر البارات.. وشراب البكوات.. ورسول الملذات.. ومفتاح المسرات.

دنيا..

عالم.. بنجومه.. وكواكبه.. ووزرائه.. وحكامه.. انطوى كما تنطوى صفحة كتاب.. ولم يترك أثرًا.. ولا حتى شبحًا

باهتًا فى ذاكرة..

لا شىء تمامًا..

تبخر الناس كالسبرتو.. ولم يتركوا حتى.. رائحة..

هل كان سيد شطا المطرب الشهير اللامع الذى كان يغنى فى تلك الأيام فى صالة اللونابارك ويدوى من حوله التصفيق.. هل كان يعلم أنه هو والصالة والجمهور والصحف التى تكتب عنه وكل هذه الأضواء التى تتلألأ حوله.. هى أضواء على جدران فقاعة.. تنتفخ.. وتنتفخ ثم تنفجر.. ولا شىء..؟

لا شىء يبقى أبدًا.. لاهو.. ولا الناس.. ولا الصالة.. ولا المجد.. ولا المستقبل اللامع..

أعتقد أنه لو فكر فى هذه النهاية.. وهو يتألق ويلمع.. لأصابه الجنون أو الصرع.

والكاتب الكبير الأستاذ أنطون يزبك.. محرك التشنجات.. ومدر الدموع.. وهو يكتب ليصنع الخلود..

خلود ماذا..؟!!

أنا أضحك.. وأنا يزبك آخر يفكر فى المجد..

مجد إيه..؟!!

إن الإنسان غلبان..

كل آماله وأفراحه يمشى عليها الزمن.. ثم يمشى عليه.. ويمشى على ترابه.. ويذروه هباءً فى الجهات الأربع.. ثم لا شىء.. لا كلمة عزاء.. ولا كلمة شفقة.

والمعزون هم الآخرون يذروهم الزمن فى الجهات الأربع.. ثم لا شىء.

والذين يذكرونه يموتون هم وذكرياتهم ثم لا شىء.

صمت.. صمت منذ تلك اللحظة وإلى الأبد..

لا أحد ينظر إلى الخلف ويقول كلمة طيبة للذكرى..

ولا أحد ينظر إلى الخلف ويبصق ساخطًا..

لا مبالاة مطلقة.. إهمال تام.. نسيان أبدى.. لذلك الإنسان الذى كان يومًا كل شىء..

ذلك الإنسان الذى كان يبدو متأكدًا من كل كلمة يقولها.. وكان يغضب.. وكان يقتل.. وكان يصرخ.. لمجرد أنك اختلفت معه..

ذلك الإنسان الذى كان يتزاحم ليدخل التاريخ.. ولا تاريخ هناك.

الإنسان.. الذى تذهب ألوفه المؤلفة.. دشت بلا تاريخ.. بلا أثر.. بلا رائحة..

الإنسان الوحيد وحدة مطلقة.

وكنت أشعر فى تلك اللحظة بوحدة مطلقة.

كنت كالعائد من منطقة أثرية.. لا إلى نفسه.. ولا إلى بلده.. ولكن إلى منطقة أثرية أخرى..

وكنت أنظر من النافذة أتلمس فى الظلام شيئًا أتشبث به..

وكانت النجوم تترامى أمام عينى على مسافات لا نهائية.. وتلمع صامتة..

وكان الصمت الأبدى لهذه المسافات اللانهائية يفزعنى..

أن الكون لا يهمه أمرنا أبدًا..

إنه يعطينا ظهره..

إن الفيلسوف الذى ظن أن السماء تتدلى منها ثريات النجوم لتضىء له.. كان يضحك على نفسه..

إنه مثل الرجل الساذج الذى ظن أن الله خلق للخيول ذيولا لنصنع منها المنشات.

إن النجوم لا تدرى بوجودنا.. ولا يهمها أمرنا.. إنها

تلمع على وجهى كما كانت تلمع على وجه أنطون يزبك.. كما كانت تلمع على وجوه الزواحف الكبرى المنقرضة.. كما كانت تلمع على الأرض الخراب الخلاء من قبل الحياة.. وهى ماضية فى أفلاكها الدوارة لا تدرى بنا..

الطبيعة عمياء خرساء.. لا مبالية..

عندما أكلت الدودة قطننا.. قال قسيس القرية.. إن الله قد سلطها على أرزاقنا لأننا كفرنا بنعمته..

من أين له ذلك.. وكيف عرف مراد الله؟.

ولماذا لا تكون الدودة قد أكلت قطننا بحسن نية.. كما نأكل نحن الدجاج بحسن نية.. ودون أن يرتكب الدجاج ذنبًا يستحق عليه العقاب.

وهكذا الطبيعة.. دائمًا بريئة بيضاء القلب.. عمياء.. خرساء.. لا مبالية..

إنها تستمع إلى بكائنا.. كما تستمع إلى ضحكاتنا.. فى صمت أبدى..

وهذا الصمت الرهيب الأبدى.. هو الشىء المفزع.

إنه يجعل أغنياتنا حزينة.. ويجعل ضحكاتنا جوفاء.. وابتساماتنا باهتة.. ويجعل من بكائنا نهنهة يتيم وحيد بلا

أهل.. وبلا أمل فى آذان تسمعه.. وبسبب هذا الصمت.. نلوذ بالمسجد.. وندخل الكنيسة.. ونركع فى المعبد.. لأننا لا نستطيع أن نعيش فى وحدة مطلقة.. لا نستطيع أن نعيش منسيين يذكرنا منسيون مثلنا.

وبسبب هذا الصمت.. نلوذ بالفن.. ونعيش سدنة فى معبد الجمال.. ونلوذ بالعلم بحثًا عن حقيقة.

ونتعاطف مع الله والحق والخير والجمال.. ونلتمس الصداقة فى المثل.. لأن الطبيعة تخذلنا.. تعطينا ظهرها.. وتمضى فى فلكها الدوار تجوب الفضاء فى صمت.. لا تدرى بدموعنا ولا بضحكاتنا..

آجال لا نهائية من الصمت.. وأعماق أبدية من الظلمة.. ونسيان.. ونسيان مطلق.. وجحود..

الطبيعة تلدنا.. ثم تنسانا.. وتجحدنا.. وتموت أعدادنا كأعداد النمل.. بلا أرشيف.. بلا سجلات..

***

هل نظرت من النافذة بعد منتصف الليل.. فى أغوار السواد الذى تتلألأ فيه النجوم..

وهل شعرت برأسك وهى تسقط فى هوة ذلك الصمت الأبدى.. وكأنها تنفصل عنك وتبتلعها الهوة بلا قاع.

إنك لو شعرت بهذا الشعور.. فسوف تعرف.. لماذا فى الدنيا فن.. ودين.. وعلم.. ومثل عليا..

سوف تعرف.. أن هذه الأشياء هى أرضنا الحقيقية التى نقف عليها.. وما عداها فلك دوار.. كالبساط ينسحب من تحت أرجلنا فى كل لحظة.. ويمضى إلى غير عودة.. وبلا مبالاة.

وأن الحق والصدق أنه.. لا إله إلا الله.

وأن هذا هو الشىء الوحيد الثابت الذى نمسك به ويمسك بنا فى دوامة الزوال الأبدى.

أقوال غير مأثورة

- الإنسان مغرم دائمًا بالتضحية.. كان فى أول حياته يذبح نفسه قربانًا لله.. ثم بدأ يذبح خروفًا.. والآن هو يذبح الآخرين.

ضابط متقاعد

- رضاء الضمير مستحيل.. وفى اللحظات التى يخيل إليك أن ضميرك رضى عنك.. لا يكون فى الحقيقة قد رضى وإنما يكون قد مات.

معذب

- أنا لا أحب لبس الساعات. لأنى أبدأ بأن أضبطها على مواعيدى.. وتنتهى هى بأن تضبطنى على مواعيدها.

فوضوى

- نحن أكثر وحشية من النمر.. فالنمر يقتل ليأكل، أما نحن فنقتل لنجعل من قرن الحيوان الذى نقتله رأسًا لعصا.

تاجر عصى ومنشات بطنطا

- الصدق هو الكذب الذى لم نكتشفه بعد.

إنسان متشائم

● إذا جثم عليك كابوس الملل.. ابحث عن واحد يمل معك..

متخصص فى التسلية

● إذا وجدتنى أكذب لا تلمنى وإنما لم نفسك، ولم الخمسة آلاف مليون إنسان الذين يعيشون فى العالم.. لأنكم أنتم الذين جعلتم حياتى غير ممكنة بدون كذب.

كذاب

● ماذا يريد السود منا.. لقد أدخلنا فى بيوتهم الماء والنور وإنجيل السيد المسيح.. وعلمناهم القراءة والكتابة، ثم شنقناهم لنعلم غيرهم.

أليس هذا أمراً طبيعيًا؟.

استعمارى أبيض

● الدبلوماسى هو الرجل الذى يحدثنى وهو يكرهنى، فأظن أنه يحبنى.

سفير سابق

● الحب هو الجنون الوحيد المعقول فى الدنيا.

عاشق

● الطريقة الوحيدة لتجعل امرأة صماء تسمعك.. هى أن تقول لها أتزوجك.

طبيب أنف وأذن

● سلة القمامة التى نلقى فيها بكل أفعالنا.. هى كلمة قسمة ونصيب.

كناس فى شارع الفلسفة

● الرجل الذى يحب عشرة نساء.. حياته فارغة.. والرجل الذى يحب امرأة واحدة حياته مليئة..

روميو

● الزواج كالماء والحب كالليمونادة قد تكون الليمونادة طعمها أحسن، ولكن الماء ضرورى جدًّا للحياة.. لا تقوم لها قائمة بدونه.

خبير فى الحب والشئون الزوجية

● الحبيب الغيور له ألف عين.. وهو مع ذلك أعمى.

حبيبة مخلصة

● إذا خلصت الحب مما فيه من أنانية وشهوة جنسية ورغبة فى حفظ النوع.. فإنه لن يبقى لك إلا.. الإنسانية..

ماجستير فى العلاقات العاطفية.

● اسق حبيبتك من كأسك.. حذار أن تسقيها من نفسك.. إننا حينما نعطى نفوسنا للنساء نعجز عن استردادها.. إننا نذوب فيهن كما يذوب السكر فى الماء ويصبح من المستحيل فصلنا من جديد بدون اللجوء إلى النار والغليان والتبخير.. وحينما يذوب الرجل فى المرأة يضعف ويصبح مثل ظلها والمرأة لا تحب الرجل الضعيف حتى لو كانت هى سبب ضعفه.. هناك واحد هو الجدير بالعبادة.. هو الله وليس المرأة.

شاعر ضيعته امرأة

● حينما أرغب فى التطلع إلى وجهى أنظر إلى المرآة.. وحينما أرغب فى التطلع إلى نفسى أنظر فى عين حبيبتى..

عاشق

● المجرمون واللصوص يبتزون أموالى، ولكن قسوة الناس العاديين حولى.. قسوة أمى وأبى وإخوتى.. تبتز روحى.. تبتز أخلاقى.. فأتحول إلى إنسان خشن غليظ قاس.. ليت الأمر وقف عند ابتزاز المال.. لكان أهون..

إنسان رقيق

● المرأة التى تحرص دائمًا على الاحتفاظ بزوج وعشيق فى

وقت واحد.. لا تحب الاثنين فى الحقيقة.. ولكنها تحب نفسها.

رجل مضرب عن الزواج
ومضرب عن العشق

● الزواج عملية انتخابية خطرة يدفع فيها الزوج تأمينا كبيرًا غير المهر ومؤخر الصداق والنفقة.. هو شرفه واسمه.. وأحيانًا تضيع عليه كل هذه التأمينات.. ويضيع عقله.. حينما يسقط.. ويفشل فى اكتساب الصوت الواحد الذى بنى عليه كل هذه الامال.. صوت زوجته..

زوج مجرب

● الأولاد يقرءون الروايات البوليسية ليسهروا بعدها للصبح.. والشيوخ يقرءون الروايات نفسها ليناموا..

صاحب كشك كتب

● مسكين زوج الراقصة.. إنه الوحيد الذى يرتجف من الرعب كلما ألقت بقطعة من ثيابها على المسرح..

صديق الزوج

● جمال الحب فى سريته وخصوصيته.. وحينما يكون هناك حب بين اثنين فإن مجرد حضور شخص ثالث حتى ولو

كان هذا الحضور لغويًّا، أمر لا معنى له على الإطلاق..
عاشق

- لم يحدث فى التاريخ أن ثارت نملة واحدة على مملكة النمل.. والنتيجة أن النمل ما زال إلى الآن نملا.. وسيظل نملا إلى الأبد ولن يتطور..

ناقد

- أول عمل تقوم به الممثلة المشهورة حينما تفتح عينها فى الصباح أن تتصفح الجرائد لتبحث عن الكذبة التى قالتها فى المساء.. هل وصلت إلى الصفحات الأولى أم لا ؟
وهذا هو ما يسمونه فى الفن.. الاطلاع على جرائد الصباح..

محرر أخبار الفن

- أجمل ما فى الزواج هو الاستعداد للزواج..

رجل مضرب عن الزواج

- إذا ضايقتك زوجتك.. لا تفقد أعصابك.. ولا تشكها فى المحاكم.. فقط اجعلها تحمل وتلد عشر مرات.. إنها سوف تفقد شكلها وتتحول إلى بقرة.. ثم تجد عشر مشاكل تشغلها عنك..

رجل غنى جدًّا

- الكاتب الكبير الذى يتهافت الناس على شراء كلامه رجل مهم.. والكاتب الذى يتهافت الناس على شراء صمته.. أهم بكثير..

رجل أخرس

- السعادة كالنوم كلما انتظرتها وسعيت إليها.. هربت منك وطارت من جفنيك..

بائع حبوب منومة

- هناك شىء فى عينى المرأة الخائنة ينم عليها.. شىء لا يغسله الصابون.. ولا يخفيه الريميل.. ولا الكحل.. ولا تستره النظرة البريئة الوديعة مهما كانت متقنة فى تمثيلها...

زوج مخدوع

- الحب ليس لقاءً أسبوعيًا فى شقة تأخذ بعده حمامًا.. الحب لا يصبح حبًّا إلا إذا أصبح قوة تجمع اثنين ليعيشا معاً على طول.. ولقاء الشقق ليس فى الحقيقة حبًّا.. إنه اعتذار من الاثنين بأن كل واحد لا يملك للآخر حبًّا.. لا يملك إلا هذا.. هذا الشىء فقط للأسف..
وأن كلا من الاثنين لا يطيق الآخر إلا بضع ساعات

على الأكثر هذه هى الصراحة المؤلمة التى يجب أن يعرفها الجنسان..

صاحب جرسونيرة

● كل زوجة تخون زوجها يقابلها عشرة عزاب يرتجفون رعباً من الزواج.. هم العشرة الذين رأوها تخلع ثيابها أمامهم.. إن كل رجل منهم يرى فيها زوجته المقبلة.. ويحمد ربه أنه لم يتزوج بعد..

رجل اختار الفضيلة

● لست أخاف من امرأة شريرة لأن شرها يجعلنى أحتشد لها بكل أسلحتى.. أما المرأة الفاضلة فإنى أخافها وأرتعد منها لأن فضيلتها تجعلنى ألقى بكل سلاحى وأقابلها عرياناً.. وأضع روحى بين كفيها.. بلا تحفظ..

رجل واع

● الأعزب كالبواب يستطيع أن يدخل كل الشقق، ولكنه يظل دائماً بواباً.. لا يزيد نصيبه عن البقاشيش التى تتبرع بها الزوجات الخائنات نظير مسح الشقة فى أثناء غياب البيه فى الإجازات..

بواب دقيق الملاحظة

● أحسن واحد ينصحك بالإقلاع عن الخمر رجل عاجز عن الإقلاع عنها.

مدمن مخدرات

● رغبات الإنسان أطول من ذراعيه.. إنه لا يسبع أبدًا.. وهذا سبب كثرة ترديده لكلمة الحمد لله.. من فرط افتقاره إلى الحمد.. ولفرط احتياجه إلى كلمة يخفف بها جوعه وطمعه.. ولأنه فى الحقيقة لا يحمد أبداً..

حامد ساكر

● بعد مائة سنة سيكون من العيب جدًا أن يقول الناس.. أنا روسى.. أنا هولندى.. أنا انجليزى.. ستكون هذه الكلمات.. مخجلة.. مزرية.. تمامًا.. مثل.. أنا من عيلة طشت.. أنا من عيلة خشبة.. أنا من عيلة القط..

أحفادى سنة ٢٠٦٧

● الطريقة الوحيدة لتحويل الكتب الأدبية الطريفة إلى كتب سخيفة هى تقريرها على المدارس..

مدرس عربى

● الملايين التى ننفقها على شرب الشاى والقهوة والسجائر

والمخدرات والخمور والورق.. أقوى دليل على أن الحياة لا تحتمل..

بائع لب

- الناس تتشدق بالواقع وتحتكم إلى الواقع وتتذرع بالواقع.. ومع ذلك فلا أحد يريد الواقع.. وإنما الكل يطالب بتغيير الواقع.. ويحلم بالخلاص من الواقع..

زهقان

- الفتاة الشاطرة هى التى تنصب شباكها لاصطياد الزوج وتجعله يعتقد طول الوقت أنه هو الذى ينصب شباكه لاصطيادها..

فريسة وقعت فى الشباك

- ساعة من المشى إلى بيت حبيبتى.. أهون من دقيقتين فى انتظارها..

بطل فى الجرى

- أنا لا أثق فى عواطف البنت قبل العشرين.. إنها لا تعرف ماذا تريد من نفسها.. ولا أثق فى كلامها بعد الثلاثين لأنها تعرف أكثر مما يجب..

رجل لن يتزوج

- الزوجة التى تخشى أن أخونها أفضل من الزوجة التى أخشى أن تخوننى.. إنها تجد شغلة تملأ وقتها.. إنها تنشغل بى وهذا أفضل من الانشغال بالآخرين..

رجل متشائم

- من الأمور المضحكة أن الرجل الذى يروض الأسد ويضربه بالكرباج.. تضربه امرأته بالشبشب..

بائع صنادل وقباقيب

- مهما ظهر لك أن البنت تنظر إليك فى رومانتيكية وتكلمك بصوت حالم، فالحقيقة أن عينها تكون على محفظتك ومرتبك الشهرى، واهتمامها موجه إلى مركزك ومدى لياقتك كزوج.. وهذه هى أسرار الحب التى لا تقولها لك أبدًا..

بوليس سرى

- الكثير من النساء.. والكثير من الرجال.. يعيشون لشهواتهم.. ويتخذون من الحب.. رخصة.. للوصول إلى الفراش بأسلوب مهذب شريف..

إنهم لا يحبون ولكنهم يحاولون أن يخلقوا عذراً لرغباتهم.. ويصنعوا جوًّا تكون فيه هذه الرغبات حامية

لذيذة.. فيقول كل واحد للثانى.. أحبك.. أعبدك..
أهواك.. يا حياة قلبى..
عاشق محترف

● فى السويد يتبادل الرجال والنساء القبلات أولا.. ثم يسأل كل واحد الآخر.. ما اسمك..
وفى الإسكيمو يتبادلون الزوجات.. من باب الإكرام وحسن الضيافة..
لا شىء مطاط فى الدنيا مثل كلمة الأخلاق.. إن لها فى كل زمن معنى.. وفى كل مكان تفسيرًا..
مدرس نظرية النسبية

● شرف البنت فى هذا الزمن مثل عمود النور يولع مليون مرة..
بائع ولاعات

● فى الماضى كانت الحرب تحتاج منا أن نتماسك بالأيدى.. ونتبارز بالسيوف وجها لوجه.. كانت تحتاج إلى شجاعة وقوة وخلق.. أما الآن فإن الضابط يستطيع أن يهلك دولة بأسرها ويشعل فيها النيران بأن يضغط على زر فى

قاعدة صاروخية فى المحيط وهو يدخن ويأكل الجلاس..
بعيدًا عن أى خطر..
ضابط قديم

● سرقات الملوك.. اسمها المهذب.. ضرائب..
مأمور ضرائب فى عهد الخديوى

● لو لم يكن إبليس موجودًا.. لأوجدناه.. لأننا لا نستطيع أن نعيش دون أن نمسح ذنوبنا فى شبح نلعنه كل يوم ونرجمه لأنه غرر بنا..
مذنب

● الإنسان بدون حب.. إنسان ضائع.. متشرد.. بدون أهل.. بدون سكن.. بدون وطن.. بدون شىء يمت إليه بالقرابة.. بدون شىء يمسك عليه وجوده ويلضم لحظاته بعضها فى بعض.. إنه يتبعثر فى ألف رغبة.. كل رغبة تنتهى إلى ملل.. وكل ملل ينتهى إلى يأس.. إنه يصبح مجرد شهوات حلقها جاف تزداد عطشًا كلما ارتوت.. لا شىء يملأ ذراعيه.. ولا شىء يملأ قلبه.. ولا شىء يملأ عينيه.. زائغ.. زائغ.. على الدوام.. إن الجحيم أهون.. إن الموت أهون.. من أن نعيش حياتنا بلا حب..

وأعظم حب هو أن نحب الخالق العظيم الذى خلقنا ونعطى له وجهنا كما تعطى زهرة عباد الشمس وجهها للشمس.

خبير فى الحب

● بدون الإيمان يصبح المرض والإفلاس والفشل.. أسبابًا كافية للانتحار..

إن الرجل الذى يعيش بلا إيمان لا يجد مبررا لعذابه.. وهو دائما لا يقبل إلا واحدًا من حلين.. إما أن تكون الحياة سعيدة.. وإما أن يغادرها..

مؤمن

● المرأة تعتمد على الروج والبودرة والفساتين والبارفان للدعاية عن جمالها وجسمها.. وحينما تخلع عارية تعتمد على الشيطان فى الدعاية عن باقى البرنامج..

بائع كالسونات

● المصرى الوحيد الذى استطاع أن يقوم بالدعاية لنفسه لمدة ثلاثة آلاف سنة بعد وفاته هو خوفو الذى بنى الهرم..

مدير مكتب دعاية الشمس

● نصيحتى للممثلة الناشئة التى تريد أن تصل بسرعة.. ألا تضيع وقتها فى البحث عن جمهور تمثل أمامه، وأن تبحث أولا عن منتج تمثل عليه..

ممثلة قديمة

● لا داعى لأن تشتم حبيبتك.. قل لها يا أختى.. هذا يكفى.

رجل قاسى جدا

● الحب يشبه كتابًا قيما عميقا.. والخبص يشبه صحافة يومية مسلية..

صحفى

● الفرح الوحشى.. والمرح العنيف.. والضحك المجلجل.. حالات لا تدل على السعادة.. وإنما تدل على التعاسة.. إنها تشنجات البؤساء الذين يريدون أن يؤكدوا لأنفسهم وللناس أنهم يفرحون.. ويفرحون بشدة..

متعهد أفراح

● نحن فى صبانا نبدو متأكدين من أشياء كثيرة.. وفى شبابنا نحارب بحماس من أجل هذه الأشياء.. وفى شيخوختنا نشعر أن المسألة لم تكن تستحق كل هذا

الحماس.. وأن أغلب الأشياء التى اعتنقناها فى تعصب.. كانت خطأ..

وهذا هو السبب فى أن أسوأ السياسيين هم الشيوخ.. لأنهم يعيشون فى التردد.. والشك.. والافتقار إلى العقيدة..

شاب متحمس

● الذين يمتدحوننى يضغطون علىّ ويحرموننى من حريتى.. إنهم يشيدون أمامى حائطًا من الغرور يسد علىّ طريق الرؤية..

ممدوح

● سفاح البحيرة.. واسمه الحقيقى عبد الرحمن.. دلت تحريات المباحث على أنه يملك ٦٣ فدانًا ومتزوج وله ٧ أولاد.. وحج بيت الله ٧ مرات وقتل أربعة..

خبر منقول عن الجرائد بالنص

* * *

فهرس

صفحة

مقدمة ٣

الأحلام ٩

الدائرة المغلقة ٢١

غول.. اسمه الواقع ٣٠

اكتشاف ٣٨

الحلم الذى رأيته ٤٩

حقيقة الحب ٥٩

اللذة ٦١

الباب ٦٩

المفتاح ٧٦

الطريق ٨٢

محنة القلق ٨٧

كرباج على العقل ٨٩

معركة فى سرداب مظلم ١٠٠

ثغرة فى الجدار ١١١

الوهم	١٢٥
السقوط	١٣١
اللعبة	١٤٢
الصدمة	١٤٨
النمل	١٥٧
الرجل والرجل	١٦٤
الواقع أن	١٧٠
نسيان.. صمت.. إلى الأبد	١٧٨
أقوال غير مأثورة	١٨٩

رقم الإيداع		١٩٨٦ / ٣٨١٣
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١٦٩٨-٤	ISBN

١ / ٨٥ / ٢٥٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)